الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
٤٨

رواية

إنجريد توبوا

ملك أفغانستان لم يزوجنا

ترجمة : دكتورة سوزان خليل

إنجريد توبوا

• كاتبة فرنسية ولدت عام ١٩٨٠ فى فرنسا.

• قضت عدة سنوات فى الخارج بين رحلات وبعثات إنسانية وتحقيقات إذاعية، سافرت إلى إندونيسيا والصين وبومباى والبلقان وبوليفيا وغينيا وبعد سنوات من حياة الترحال على درب "نيكولا بوفييه"، مكثت بعض الوقت فى كابول لتكتب روايتها الأولى "ملك أفغانستان لم يزوجنا"، وتحصل بها على جائزة الرواية الأولى للأدب الفرنسى لعام ٢٠٠٧ وقد جاء فى تقرير الجائزة "بفضل موهبتها الفذة وحضورها الطاغى الذى ظهر من خلال أحداث الرواية التى مزجت فيها ببراعة بين قصة حب وبين اكتشافها لهذا العالم البعيد والذى اكتشفنا نحن من خلاله صوراً جديدة".

• تقيم الآن فى باريس وقد تفرغت للكتابة.

الجائزة: جائزة الرواية الأولى فى فرنسا. تمنح هذه الجائزة لأول رواية يكتبها الروائى.. أنشئت عام ١٩٧٧، وخلال ربع قرن حازها العديد من الروائيين الفرنسيين الذين شكلوا فيما بعد المشهد الروائى الفرنسى مثل الكاتب "ميشيل اريفيه" الذى نالها عام ١٩٩٩، وقد كان آخر من حصل عليها "تيرى دانكورت" عن روايته "فندق لوزان" عام ٢٠٠٨.

مَلِكُ أفغانِسْتانَ لَمْ يُزَوِّجْنا

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذى	السيد أبو شادى
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى	دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبدالواحد
	على أبوالخير

توبوا، إنجريد.

ملك أفغانستان لن يزوجنا: رواية/ إنجريد توبوا؛ ترجمة: سوزان خليل. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .

١٦٠ ص ؛ ٢٢ سم .

تدمك ٤ ١٦٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص .

(أ) ـ خليل، سوزان (مترجم)

(ب) ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٩٧ / ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 421 - 169 - 4

ديوى ٨٠٨,٨٣

مَلِكُ أفغانستان لم يُزَوِّجنا

رواية

إنجريد توبوا

ترجمة : سوزان خليل

٢٠٠٩

• الكتاب: **ملك أفغانستان لم يزوِّجنا**

Le Roi D' Afghanistan NE Nous Apas Maries

• تأليف" **إنجريد توبوا** Ingrid thobois

• ترجمة: سوزان خليل.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى الهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للناشر الأصلى.

© by phébus, paris, 2007

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

إلى فريدريك

كلمة شكر

إلى فرانسين وبرنار، من أجل الثقة والحرية.

إلى ميشيل نوريدساني.

إلى جان س. وماتيوت.

إلى فلورانس شاهارا، وفايز محمد، ووايس، وهونار، وهانغاما، وهوزا، واسماعيل، وغلام ناصر، وزالماي، وميروايس، وشاهر، ومحمد، وعزيزة، وإلى د. لطيف شاه ديليري، وإلى حسين زاده، وكريم.

إلى رجال مستوصف صافد شير.

الفصل الأول

هى النهاية إذًا. خاتمة حب أحمق، انتهى إلى **وداع**، فيما كان؟! من سلطة ملك أن يزوجنا، **والأدهى** فى التو والحال. لكن دعونا لا نسىء الظن: **إنها** حالة فراق. تصدع بعد كسور أخرى، شىء من **العذاب**.

اجتزنا بتأنٍّ عتبة الخاصة الملكية: فأى خطأ فى **الاتجاه** لم يكن ليفضى إلى حرم القصر. ممشى عميق **خالٍ**، محفوف بأشجار زينة ذات جذوع عريضة لم تقو **الحرب** على اقتلاعها. كانت هى كابول. لكن الأمر **مختلف**. عند المغيب، عَلت زقزقة الطيور، وسَرَحتُ **بفكرى** فى أنثى الببغاء الخضراء، ذات المنقار الأحمر **الحاد**، وقد وضعت ثقتها كاملة منذ بضع ساعات فى **طرف** الحديقة الذى أسير فيه، تجول فيه بمشية **متراخية** لطير أبله لا يجيد الطيران. لم ألبث أن **ضللت** الطريق. فعدتُ أدراجى إلى القصر. كانت يد **ناتان** تشد على يدى: ستكون بادرته الأخيرة، برهان

حبه الأخير. واستحوذ ذلك على تفكيرى. أين القصر يا تُرى؟

كان المدخل يسبقه رواق مرتفع مغطى بأحجار داكنة، بالغ الاتساع بالقياس إلى الأزقة الأفغانية، مسحة من نوفجورود ولمحة من باريس. أين القصر يا تُرى؟ اصطف عشرات الجنود، يحملون على أعناقهم بنادق الكلاشينكوف ويعلقون فى أفخاذهم بنادق رديئة شتى، مُصرِّين على ارتداء نظارات سوداء تحت المطر. خلف الجباه الضيقة لهؤلاء الحراس ذوى القبعات، هل يبقى فى الذهن موضع للشك وقد انحصر تفكيرى فى تأمل فيلم تدور أحداثه بدونى؟ سرعان ما بلغنا فناء القصر. لم يعد ثمة مجال للشك. لكن لماذا فى واقع الأمر؟ كان ناتان ينظر إلىّ، لكنى عجزت عن الرد عليه إلا بابتسامة. اعترى قلبى خوف دون أن ترتعد أوصالى. نوع غريب من اللامبالاة إزاء إحدى العجائب، ولا أثر يُذكَر لحياء مصطنع.

ذهبنا للقاء الملك، هأنذا أتذكر.

مر زمن الانتظار فى البهو كالبرق، كجزء من البليون من الثانية أو ما أشبه. أتيح لى بالكاد أن أتحقق فى قاع حقيبتى المصنوعة من الكتان من موضع دفترى، ومن وجود قلم، وأن أصور بطرف عينى لون الأريكة الأخضر، والمسامير الذهبية فى الأبواب، وربما تمكنت بعد ذلك من تقدير ارتفاع الأسقف. لم يقدَّم الشاى، فراودَنا الشك فى أننا ببلد مضياف،

وسرعان ما حانت ساعة الصعود لمقابلة الملك، عبر المطبخ، أمام ثلاثة حواجز فاصلة، مروراً بسلم عريض، ثم بقاعة الطعام. تلاقينا وجهاً لوجه مع إحدى الأميرات: حفيدة الملك. جميلة، رغم أنها تناهز الخمسين، تتحدث الفرنسية برقة. "أهلاً! ليس ثمة ما يستوجب الشكر!" كان باب البهو مفتوحًا. ورأينا رجلين يتناولان بعض البسكويت.

لم نتوقف لثانية: أجلسونى قرب الملك.

مضطجعًا فى مقعد وثير كطفل فى مركبة أطفال، يرتدى قلنسوة من فرو الأستراخان، أصابعه مزينة بخواتم من اللازورد، وشاربه الأبيض يهتز فوق شفاه مكسوة ببلورات سكر البسكويت، رجل كهل يرتشف الشاى ببطء ويبدو منتشيًا بوجوده تمامًا. ثوب وردى ناحل اللون، سحنة برونزية - عجباً! من أين؟ - بدا أن دهوراً قد انقضت دون أن يشعر الضاحك القصير البصر بمرور أى منها. ومن فرط ارتباكى ظننته الملك زاهر شاه. لم يكن سوى شقيقه، ضاحك الوجه مع ذلك. لم يدم الاستخفاف طويلاً، مما أشعرنى بارتياح. لكن هذا الشقيق كانت له هيئة الملوك بالفعل. وفوق ذلك، كيف عسانا أن نخمن أن الرجل الآخر، العارى الرأس، أمكنه أن يظل لأكثر من سبعين عاماً أباً لأمة ثائرة كأفغانستان؟

كنت قد تأهَّبتُ للمقابلة كما لو كانت اختباراً. ومن بين كل ما قرأت، تذكرت تاريخاً

بعينه: عام ١٩٣٣ لكن كتب التاريخ تُمسِك دائمًا عن الإجابة على أهم الأسئلة الجوهرية. هل يتعين علىّ أن أشد على يده؟ وكيف أخاطبه؟ لم يكن لفظ "صاحب الجلالة" مألوفاً لى، وجعلتنى نظرته الساهدة أفترض أن الكهل ذا التسعين عامًا قد أرهقه اعتلال الصحة فبات مكدودًا. كان زاهر شاه يشبه أكثر الأجداد حنوًا، وهذا الاكتشاف، بعيدًا عن خيبة الأمل فى حياء بحثت عنه دون جدوى، كان مصدر سعادة إلى أقصى الحدود. إن الملك لا يثير الخوف: فصوته لا يدوى كصوت قائد، ولا يعير أى اهتمام لقواعد البروتوكول المثيرة للقلق. لا أثر للأبهة: أين ذهب الملك يا تُرى؟

كان واقفًا أمامى.

الفصل الثانى

كان القاموس الذى حملته إلى أفغانستان اقتصاديًا بصورة مثالية: رغم أن سُمكه لا يتجاوز ثلاثة سنتيمترات، فإنه ما كان لى أبدًا أن أشكو من نقص أى لفظ فيه. وأظل مندهشة لاحتوائه دائمًا على الكثير مما لا أعرفه. لفظ "عمل" هو أحد المدخلات التى تشغل أكبر حيز. عكسه: "البطالة، الخمول، الراحة". أما تعريفه فى القاموس فهو: "مجمل الأنشطة البشرية المنظمة الهادفة إلى إنتاج شىء نافع؛ حالة، نشاط شخص يعمل بغية بلوغ مثل هذه النتيجة."

بالأمس، تأكدت أن الكتابة ليست عملاً. تساءلت وتذكرت ما قاله لنا أستاذ للغة اللاتينية، كان قد وصل إلى المدرسة لاهثاً وهو يقود دراجته، وربطة عنقه كادت تنفك، حول الأصل التأديبى لهذا المصطلح: عمود التشهير. لكن العناء الناجم عن الكتابة لا علاقة له بالتكفير عن خطأ ما، وإنما هو

عملية مكابدة يسلِم المرء نفسه لها وهو موقن بأنه سيعقبها شعور بالارتياح. ويشبه ذلك إلى حد ما ممارسة الرياضة، ساعة من السباحة فى قلب الشتاء داخل الحوض الخارجى لمسبح فى نورماندى. إن المرء لا يتناول القلم كما يمسك بالمعول، لكنه يشعر بالإرهاق كعمال النقل. الكتابة تمضى دون أن يشعر بها أحد، وهنا مكمن الداء: فأولئك الذين يهَبون أنفسهم لها لا يدركون ما يجرى فى حقيقة الأمر. والرفاق الذين تربطهم بهؤلاء صداقة حميمة جدًا، أولئك الذين يشاطرهم المرء أحلامه، هم وحدهم القادرون على إدراك حقيقة هذا العمل الشبيه بدأب النمل .

أنا وكتاباتى، حقاً كلانا لا يفعل شيئًا لتخفيف الديون المستحقة على بلدان العالم الثالث. لكن أحدًا لم يتبين ذلك، فوضعى كمدرِّسة يرد لى اعتبارى. ثم إن عقدى شاهد على أن شخصًا ما قد احتاج إلى خدماتى ذات يوم. إن التدريس فى أفغانستان هو حاليًا أفضل وسيلة وجدتها لكسب العيش. هى مهنة تحظى بتقدير اجتماعى وألتزم بكل مقتضياتها. إننى ببساطة أهب نفسى للتدريس باستمتاع، حريصة أن يحتفظ طلبتى على وجوههم دائماً بلمحة سعادة، وفى ذاكرتهم إن أمكن ببعض مبادئ اللغة الفرنسية. أسلوبى فى العمل يفتقر بعض الشىء إلى منهج. فأنا أُدَرِّس للمرة الأولى تمامًا. والمعلمون الأفغان الأكبر سناً يرشقوننى بسهام نظراتهم. خاصةً مدرس اللغة

الإنجليزية، الذى سلبتُه جزءًا من نصاب حصصه. هكذا أخذ السيد شيرزاد يخصُّنى بمقالب صغيرة كل اسبوع، كأن يختلس مفتاح قاعة الدرس المخصصة لنا، أو يعدِّل جدول الحصص، أو يخفى إصبع الطباشير. ويستشيط طلبتى غضبًا. ثم تنتهى القصة بحصة فى الهواء الطلق.

ظننت يومًا أنه سيكون بمقدورى الكتابة مع الاستغناء عن الآخرين. وأقول صدقًا، كنت مقتنعة بأن الوحدة كفيلة بذاتها بمعالجة افتقارى إلى الخيال وأنها ستتيح لى تحقيق التوازن فى عباراتى. هكذا قضيت شهورًا معتزلة فى غرفتى، متجاهلةً ما أتلقاه من اتصالات هاتفية، ازدادت ندرةً بالتأكيد، ولا أخرج سوى مرة أسبوعيًا للتردد رغم البرد على المسبح المفتوح فى الهواء الطلق. وفى نهاية الأمر، بات عامل المكتب ذاته لا يعرفنى.

إن المرء لا يكتب بدون الآخر: فالتدفق ينساب فقط، عندما تكون الغاية من جملة بعينها هى رسم تقاطيع حاجب، وتسليط الضوء على تلك الشخصيات الحقيقية التى تسكن الكون دون أن يفطن أحد إلى وجودها. التعبير عن البشر بالكلمات، هو إيجاد موضع لهم. وإضفاء صفات على هؤلاء البشر هو أشبه ما يكون بمساعدتهم على تنسيق ألوان ملابسهم. بفاصلة ننمق حافة قبعة، وبمسافة نمنح نسمة هواء أكثر إنعاشًا، وعندما تأتى النقطة أخيرًا،

ولعلها لا تكون نقطة النهاية، نردهم إلى حياتهم: فقد باتت لديهم الآن اثنتان.

منذ أربعة أيام، يصر عقرب أبيض اللون أكثر سمكًا من المحاة وأطول من خنصرى على البقاء أسفل كوب مقلوب. ها هى تجربة أخوضها بلا هوادة للتحقق من مقولة إن مفصليات الأرجل تقتل نفسها. هى فرضية خاطئة تمامًا. فحيوانى الصغير الذى لا يملك طعامًا، ولا يتنفس إلا فى حيز يكاد لا يتجاوز حجم كشتبان الخياط، واصل نموه إلى حد أفزعنى. كنت أنوى إطلاق سراحه. فى تلك الليلة على أى حال، لكن ذلك أدهشنى، فقدِ أبى أن أفى بوعدى فى نهاية المطاف. لا بأس، أباشر العمل: أتفحصه من الخارج، ويسدى لى عقربى مساعدات قيِّمة. هل نفيد الآخرين، أو هل يفيد أحدنا الآخر على الأقل؟ هل نحن "منظَّمون"، نعمل "فى إطار منظومة"؟ إن عقربى لم يدرك أن تجربتى، التى توشك أن تُجهز عليه بالتأكيد، هى أبلغ دليل على ما أعيره له من اهتمام: إننى أعيد إليه كرامته. إذا لقى حتفه، لن تكون نهايته كأى عقرب كان: هذا العقرب بالذات سوف أحصى عدد فقرات ظهره الممزق، وسأنتقى الكلمات لوصف لونه، ناهيك عن استدارة مخالبه وعلامة الاستفهام الجميلة التى يرسمها ذيله. إننى لا أحبه، لكنه ظل زادًا لعملى طوال أربعة أيام.

كل ما أرصده من العالم، أحيله إلى إيقاع: تحركنى الحِرفية. لعل ذلك من بين الأسباب التى

جعلت أفغانستان لصيقة بى: فكل شىء يُصنع فيها بالأصابع العشرة وبثمن زهيد تماماً. علينا أن نتأمل مرة واحدة فى حياتنا مهارة الحداد، الذى يضبط مقبضى مقلاة ببضع ضربات مطرقة، لندرك ما نحتاج إليه حقًا. إن الأمر يتعلق هنا بحركات أغفلناها فى مواضع أخرى: فيما وصفته تواً، ويمكن تسميته أيضًا. لكننا نصادف كذلك أولئك الذين يطيِّرون طيارات ورقية ما كان للسماء بدونها أن تسطع بذات البريق، من يُحصون عدد السحب وأداتهم الوحيدة فى ذلك هى العين المجردة، وهو ما ندركه من عمرهم الذى توقف من سنوات. والمراقبون يُعَدّون بالعشرات، يتخذون مكانهم فى زاوية الجدران، يكاد لا يدهشهم كم ما يتوالى أمام ناظريهم من غبار ومن أطفال. عندما يعمل رجل، ثمة عشرة آخرون يتدافعون: فقَصّاب الأبقار لا يُترك وحده. واحد يمسك بالذيل، وآخر يقبض على النعل الأيمن، وثالث ينظف الدماء بالماء الجارى.

عقربى ما زال يتحرك: سوف أجهز عليه حقًا. لم أفكر فى الكتابة عنه. كما لم أدَّع لنفسى شيئًا مما اكتبه. كنت أكتب من أجل الكتابة، ولكى أتنفس بشكل افضل.

الفصل الثالث

ثمة بلدان تدفعك ثم تلتحم بك ثم تمتصك بصلابة موجة قاع قبل أن تلفظك بعيدًا بلا تفسير واحد. فإذا تجرأت وحاولت الدخول، انتصبت حدودها، واثقة من نفسها ومنيعة. هذه هى حال أفغانستان. يحلم المرء، وينام تحت خارطة مثبّتة بمسامير على جدران مائلة داخل غرفة متواضعة، يلتهم بعض الكتب، ويستمع إلى الأخبار على الموجات المنذرة بالخطر، ويقرر حتمًا ألا يذهب إلى هناك ابدًا.

قبل التوجه إلى أفغانستان بأسبوعين، لم أكن أدرى شيئًا مما يدور حولى. منذ قرابة عام وأنا أعانى تعب العودة من السفر، أفتقد معظم ما اعترانى من صفاء -ظننت أنى قد اكتسبته - طوال طريق استغرق تسعة أشهر. كان العزاء هو الانتقال إلى موضع آخر: معاودة الترحال لأنفصل عن ذاتى التى أفسدت المشهد، والاستعاضة عن الشك ببعض الاهتمام

بالعالم. يدرك العقلاء حقيقة الأمر لكنهم يتشبثون برأيهم. يرقدون بلا أسماء، وحيدين حقًا فى أكثر الأحيان، لكن ينطبع على شفاههم أريج الرمال الملتهبة بحرارة الشمس، وتتفادى أناملهم حروفًا تظل تضنى القلب بعد ألف عام من الحِداد.

كنت قد فرغت من قراءة الكتاب الحادى عشر لهذا الشهر من مؤلفات كيسيل: "وادى الياقوت" La Valllee des rubis التهمته سرًا على ركبتىّ وأنا أمارس مهنتى كعاملة تحويل هاتفى. فى مركز دراسات ووثائق السكر، كان المحاسب رجلاً ورعًا يحلم بالزوارق الخشبية ويمنحنى برزانة - وكأنه رجل دين - نسخًا مشروحة من كتاب قرأه فى مرحلة الصبا ولن ينساه أبدًا. كان ينظر حوله قبل أن يدس الصفحات الممنوعة فى طيات بريدى. كان ذلك سرنا. سره بالأخص، الذى قبلت طواعية أن أكون أمينة عليه. فى أعماقه، كان هذا المحاسب القابع بين كرسيه وخزانة رفوف واحدًا من تلك الكائنات الحساسة التى لا تسمح لشىء بإفساد حياتها. لحظتها، وجدت نفسى فى الهم سواء كذلك الوجه الشاحب الذى تحرِّك قسماته أحيانًا اندهاشة: "رجاءً لا تتغيرا" وقتها، رغم ذلك، كنت لأقبل على مضض حياة محاسب، طالما أن مساعىّ فى مجال النشر والحب قد باءت بالفشل، وأخذت الحياة تمضى فى دروب مثيرة للقلق. كنت أرصد الطاقة المنبعثة من الآخرين دون أن أجد تفسيرًا لأعجوبة القدرة على صنع الأشياء. ردود الفعل الفطرية، علم

الأسباب، الانغماس فى اللذات، مسودة أخيرة، حليف، مورَّثة مهيمنة ...بقيت لدىَّ على الأقل الكلمات اللازمة لإعادة شد أوتار مخى. والكلمات التى تعلقت بها خصوصًا هى بالتحديد تلك التى لم أعرف عنها شيئًا. وإمعانًا فى تعزيز قدرتها على التجرد، أودعتها كتابةً فى كراسة صغيرة، عازمةً تمامًا على ألا أعاود البحث عن مدلولها.

ثم، خلافاً لأى منطق، جلب شهر مايو معه انقلابًا، من ذلك النوع الذى يخطئ المرء إن حاول أن يبحث له عن أسباب. هكذا تلقيت عرضًا يتيح لى أن أضع قدمى، غدًا، على الخارطة التى ظللت أرقبها طوال ساعات وغطت كامل رأسى من الداخل. كان نص الإعلان عن الوظيفة "عاجل. مطلوب مدرس للغة الفرنسية. كابول. عقد لمدة ثلاثة أشهر قابل للتجديد".

أفغانستان. كابول.عشية رحيلى، كنت أتلقى التهنئة وكأنه زواج قد اكتملت حلقاته. لكنى لم أفعل شيئًا رغم ذلك. "أفغانستان". فلتُكتب هذه الأحرف التسعة إلى ما لا نهاية. باليد اليسرى، وباليد اليمنى. ولتُقرأ بمعزل أحدها عن الآخر، بصوت جهورى، ثم ليعاد تجميعها فى صمت. لكنها ذات الحكاية الأزلية: من الوقاحة أن أظن أن هذه الهدية من حقى. أما السعى إلى استيضاح أصل المعجزة ... فإننى لا أعلم بغريق ينشد تأمل قاع المحيط.

قابلت ناتان فى باريس لإجراء مقابلة توظيف دامت لبضع دقائق، فى السابعة صباحًا داخل مقهى رياضى فى جادة راسباى. بذلت جهدى لأخفى اضطرابنا معاً. كان الصباح رائعًا. "ستعرفيننى بلحيتى وسترتى الرماديتين!" وإذ مضيت إلى هذا الموعد الذى قررت أن حياتى متوقفة عليه، حرصت تمامًا على تجنب المزالق، وحلمت بالرقم، الزوجى أو الفردى، لشارة التسجيل المقبلة.

رغم أن تركيزى انصبّ على إقناع ناتان بتوظيفى، اعترانى ارتباك لشدة انجذابى الجسدى إليه وأصابتنى الحيرة لصِلابة وجهه التى لا تتماشى مع لون عينيه. تم التعاقد معى.

بعد أسبوعين، كان ناتان ينتظرنى فى بهو مطار كابول. أمسك حقيبتى"ـ أهذا كل ما لديك؟"ـ ، عاتبنى على سيجارتى التى أحيت لديه إغراء التدخين، وفتح لى بعنف باب سيارته اللاندروفر البيضاء، ذات الشاسيه القصير، مادّاً يده نحوى برقة مبررًا مسلكه بقوله: "لكم هى مرتفعة، هذه السيارة." افترَّ ثغره عن ابتسامة تنم عن سعادة سرعان ما كبحها. "سأوصلك. ليس لدىّ متسع من الوقت."

سرنا لساعات فى شوارع كابول. ظل ناتان متراجعًا بعض الشىء، لحمايتى من ناحية وأيضًا لتأمل ظهرى ورقبتى وزاوية قدمىّ: اعترف لى بذلك ذات يوم، عندما لم يكن بوسعنا سوى أن نقر بفشلنا

ونرتعد لفراقنا. كان يتحاشى نظراتى التى لا تفتأ تتجه نحوه. كنت هنا فى بيتى. كنت هنا من أجله. دُهِش لخطواتى، التى لا تنم عن خوف: كأنى كنت أعلم بالغريزة كل ما كان هذا المكان يتوقعه منى، وكل ما لن يتسامح فيه.

كانت بداية الربيع، وموسم المانجو. قطفت ثمرة ببطء وتمعن وقوة. سال بعض اللب البرتقالى بطول معصمى. أمسك ناتان بساعدى، قلَّبه كما لو كان يبحث فيه عن وريد، ومسح بكفه الجاف خيط السكر المنساب. قدمت له نصف الثمرة مقطعة إلى معينات، وأنا أتفحصها بنظرة لا تنم عن الرضا التام. أغرقنى ناتان بفيض كلماته، مستحضرًا كل خبرته بالعالم لأدرك جزءًا، مجرد جزء، من موجة الهدوء هذه التى تجتاحه. نصف قرن تخللته مسيرات فى البرد والشمس حفرت على جانبى عينيه خطوطًا لم ألبث أن عشقتها. كان يروى ويستدرك ويقلب الأجواء دون أن يعى أن فرط كلماته يشى بكل ما يعتريه من قلق. أراد أن يقاوم: هل كان يحتاج حقًا إلى امرأة تنظر إليه وتمرر يديها فى خصلات شعره؟

ثمة رجال يرفعون النساء من على الأرض بين الإبهام والسبابة، وكان ناتان واحدًا من هؤلاء. بضغطة كف، مجوف لتقبع فيه الرقبة المبللة، يتلقفونهن وينتشلونهن للحظة ـ ثمينة، رائعة ـ من وطأة الحياة. حبة عرق متحجرة فى ركن العين تمتصها قبلة. يد

تنزلق أسفل انحناءة الصدر تفتح أبواب اللذة. ارتعدت أوصالى لتلك الفكرة فنفضتُ الرغبة عنى بهزة رأس، ثلاثة أرباع جسدى فى قلب الفراغ، لكن كيانى كله ممتد نحو اليم الهادر.

الفصل الرابع

فتح المعهد الطبى فى كابول أبوابه مجددًا. خلال الأشهر الستة الماضية، قامت الجمعية التأسيسية(*) بمصادرة مبانيه. وبعد عامين من سقوط حركة طالبان، اتجه القصد إلى بلوغ الهدف الطموح الذى وضعه المجتمع الدولى: أن تتفق مئات القيادات المحلية المتطاحنة منذ ربع قرن على وضع دستور واختيار رئيس. من بين هؤلاء، تمتعت بضع نساء لم تكن لأصواتهن أهمية تُذكَر، أو لعلها كانت ذات أهمية بالغة، بوضع مميز. أما قادة الجيش الذين شُلّت حركتهم بعدم السماح لهم بالتدخل، فقد شكلوا بطول المشهد شريطًا ملتفًا غير واضح المعالم. توالى الرجال على مقعد القيادة واحدًا تلو الآخر، مُوارين تحت لباسهم العسكرى أكُفّاً مندّاة بالخجل. تنحنحوا بتأنق ثم أخذوا يخطبون فى الجماهير ببلاغة الخطباء

(*) جمعية تأسيسية تجمع زعماء القبائل والأعيان ورجال الدين والمثقفين.

الشعبيين. لكن هذا المشهد المذهل بألوانه ومواده وأشكاله لم يكن ليخفى الدماء العالقة على كثير من تلك الأيادى.

اعتدت هذا العالم الفوضوى، بأبوابه التى تنتظر من يرفعها وقاعاته التى تكدست فيها الكراسى وكأنها كومة من الخردة. كان طلبتى دون الخامسة والعشرين. ولم يعرف هؤلاء أبدًا شيئًا آخر سوى الحرب. بدايةً من السوفيات إلى حركة طالبان مرورًا بالشيوعيين والمجاهدين. لكن وجوههم البادية أمامى كانت تنم عن شباب لم يدنَّس وعاطفة متجددة وقسوة بريئة كتلك التى يقتضيها وضع التقارير المدرسية.

فى تلك الكلية، يقابل المرء من الرسامين وصانعى الزجاج والمعماريين والكهربائيين أكثر ممن يصادفهم من الطلبة. تجدهم مكفهرين من فرط الإجهاد، وهم يصفرون ويرممون المبنى المتصدع بضربات معول خفيفة. الأروقة تعقب دهاليز تبرز فيها الركائز الكهربائية من الجدران وكأنها ثعابين بشعة، فيما تنتظر أُطُر الأبواب معالجة تعيد لها رونقها. أما الأبواب الشحيحة فقد أُغلِقت بصورة مزدوجة: لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من ترك الصدأ يعلو المفصلات بفعل الهواء. أحكم الغبار حصاره بلا أدنى نية للتخلى عن موقعه: وماذا يهم: إنها مجرد جامعة، ستكون غدًا شبيهة بجامعات أخرى.

تقلص عدد طلبتى من تسعة عشر إلى ثمانية. أحدهم ذهب لحضور عرس شقيقته، وآخر مضى إلى

مزار الشريف لزيارة أسرته، وواحد آخر لم يمكنه الحضور؛ لأنه "استغرق فى سبات عميق". أما الفتاة الوحيدة فى المجموعة، فعلى مدار عدة أسابيع منعتها بعض النزاعات مع والدها من حضور محاضراتى. دخلت القاعة التى أعاد رجل ماهر تنظيمها: على صف واحد، تواجهنى الكراسى المخلعة، ساكنة، خضراء اللون وممتدة بتلك المساند الكبيرة التى تئول إلى عهد لم تكن تخصص فيه للتلاميذ مكاتب. بجذع محدب داخل قمصانهم الناصعة البياض، بدا طلبتى الأفغان الثمانية أشبه فى نظافتهم بأطفال فى المهد. وقفوا أمامى: فى صف منتظم، بشعر لامع، وهم يخاطبوننى "سيدتى" ببراءة تتولد معها للحظة رغبة عارمة فى معانقتهم. حلَّقَت طائرة فى سماء المدينة، فاهتزت قطع الأثاث وأنا معها، بينما ابتسم الطلبة: فلم يكن لشىء تافه كهذا أن يؤثر فيهم. من هنا، تبدو أطلال مشفى على أباد القديم، مختفيةً وراء أشجار زينة ابيضَّ لونها بفعل الشمس. لملمتُ وشاحى الذى أزاحته لفحة هواء ساخن.

فى آخر القاعة، أخذ عامل ينجز عمله هنا وهناك بلمسات مبتكرة من ريشته. أسفل نوافذنا المجردة من الزجاج، أثار وقع معول قريحته الفنية. فأخذ الرسام يصفر. لم تكد المحاضرة تبدأ حتى تعيَّن علينا تغيير القاعة: فلم يعد بمقدورنا أن نسمع بعضنا. مضينا فى الأروقة المظلمة الرطبة؛ حيث تتكدس قوالب قرميد وأسلاك منزوعة وريشات

رسامين وأحجار وغبار. تقدمت ركب طلابى الذين علت وجوههم الجدية وغالبت ابتسامة تنم عن تعاطف. لا أحد يجر ساقيه، لا أحد يتباطأ: فنحن نغير القاعة؛ لأنه لا مفر من ذلك. ولا نلتمس هنا عذرًا للكسل. لحق بى أحد طلبتى، عاقد الحاجبين علامةً على الصرامة، وسار بمحاذاتى. علت جبهته حمرة الخجل، وهو يستجمع شجاعته ويتجاسر على التساؤل: " هل ستمكثين طوال الفصول الدراسية الثلاثة؟ أود ذلك كثيرًا."

لا شك أنه يتمتع بالصبر مثلنا ذلك الشخص، رجلاً كان أم امرأة، الذى خطَّ على الحافة الداخلية لنافذة، فى موضع يعلوه الغبار بسُمك خمسة سنتيمترات، بضع كلمات بلغة الباشتو التى لا أفهم منها شيئًا. اجتذبَت عينى دقة الخط، لكنى أجهل تلك اللغة تمامًا. كان إسماعيل، الذى ظل يغلق حواسه دومًا أمام القليل مما حاولت تعليمه إياه، طالبًا يتعرض لمضايقة رفاقه: انتقل بطء الفهم لديه من حيز الشهرة إلى الأسطورة. كان هو رغم ذلك من فك رموز تلك الكلمات لى، ثم ترجمها لى بلغة انجليزية رصينة، ودون أدنى تردد. داخل التراب خُطَّت أبيات الشعر التالية:

فى بداية الأمر، ظننت أن الطب يتغلغل فى روحى كالسحر. ثم شعرت فى قلبى بجرح المعرفة، الذى أدمانى بعنفوانه.

كانت أبيات الشعر الشاردة فى قلب الكلية تحتل مساحة لا تتجاوز راحتى كفى مجتمعتين. بدت جميلة، وهى تزاحم الكراسى المفككة وآثار القذائف الساكنة على الجدار المقابل.

الفصل الخامس

اللافتات المطبوعة بشعار مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين ترفرف مع تقلب الهواء. ينساب الغبار الناعم فى حزم الضوء. تتوارى لفائف القماش خلف الحوانيت الصغيرة. يختفى أحد أصحاب المتاجر، متكومًا أسفل أربعة أثواب كبيرة من نسيج الكتان برزت منها فردة حذاء. حالة شديدة من الخمول تلف السوق الغارق فى الحرارة. يتوارى ممر التوابل داخل تجويف يتيح شيئًا من الرطوبة. يرمقنى رجال جاثمون فوق منصاتهم الخشبية بنظرة لا أعرف لها قرارًا. زعفران، كمون، هال، فلفل أبيض: تشكل التوابل كثبانًا صغيرة متعددة الألوان، مزج فيها التاجر كل ألوان النار بلمسة جمالية. أنحرف عن مسارى فأبلغ ممرًا ضيقًا لا يسمح بمرور عربات اليد بما يكتنفها من خطورة. أستغرق فى أعماق ذلك الصمت غير المنتظر. ويعقب ذلك فقدان طفيف للتوازن. طاولات مفروشة باللوز، عقود من التين، وتلال من

الزبيب. تنبعث رائحة السكر المركز مكثفةً بفعل الحرارة. فى الظل الأزرق، تنسج التضاريس الدقيقة للفواكه الجافة مشهدًا رائعًا. فجأة، لم تعد العين المبهورة تميز شيئاً: ينبثق المرء من جديد داخل رواق يعج بالضوضاء، غارق فى شمس تنفث أشعتها فوق صفيح غلايات لن تلبث أن تطير مع أقل نسمة هواء.

تجلس بعض النساء القرفصاء على جانب الطريق الممتد بطول الترعة الناضبة المياه، يبعن بعض الأساور وقد غطين وجوههن. من هنا يمكن الوصول إلى اليابسة عبر جسر ضيق يمر فوقه بلا انقطاع جمع من البشر ذهابًا وإيابًا، يقصدون الجزيرة الواقع بها السوق. فى الشتاء، تجرف الترعة فى مسارها جبالاً من القمامة والأكياس البلاستيكية. وفى الصيف، فوق قاعها المغطى بحشرات طنانة، يجرى الصبية خلف بعضهم البعض وقد غطى وجوههم سواد الدخان، يهربون، يحطّون هنا، ويختبئون هناك لينتهى بهم المطاف إلى نوبة من الضحك المتواصل مع انقضاض حشد من مشعثى الشعر.

كل شىء يتلاشى مع انسحاب النهار وفى الموعد المحدد لهذا الضوء الذى لا يوفر أحدًا. إنه وقت هبوب الرياح، التى لا تلبث أن تتضخم لتنقلب إلى زوابع عنيفة. يحجب ساتر من الغبار الرؤية، وتتوارى النساء بخمارهن فى تموجات النسيج الأزرق. هى لحظتى الأثيرة، حيث كل شىء يلفه الغموض: وهذا

العالم المحيط بى، ووجودى فيه. إنها لحظة الارتعاشة التى تتخيل فيها الروح الشاردة ما يعنُّ لها من اساطير. ثلاث قطرات من المطر، مسحة من الحزن، والرغبة فى الانزواء داخل ذراعين تنبعث منهما حرارة لا يرقى إليها الشك. هذه الليلة، سأواجه صعوبات جمة فى الفصل بين السماء والأرض.

فى حى خليفة الله، أهدأ أحياء كابول، كان كل شىء يجرى كما لو كان الخبازون والتلاميذ وعمال النظافة وباعة الفاكهة قد تداولوا السر: خلف البوابة الحديدية الملونة توجد أجنبية. "الباب الأزرق الصغير"، هو عنوان يخاطب الكافة، بدءًا من بائع الكتب العجوز كثير النسيان لما لديه من نفائس وحتى ساعى البريد القادم من الطرف الآخر للمدينة حاملاً إلىّ من وقت لآخر رسائل كانت لتضيع فى أى مكان آخر: "إلى المعلمة الفرنسية، الباب الأزرق الصغير، خليفة الله، كابول، أفغانستان". عشت ثمانية عشر شهرًا تحت السقف المسطح لبيت تقليدى صُمِّم كما تخيلناه تمامًا حتى بات مثيرًا: سقف من الطين ، حوائط من الجير الحى وألواح زجاجية منفصلة بدرجة باتت معها مجرد منافذ تتراقص مع الهواء. عشت هناك ثمانية عشر شهرًا دون أن أحصى واحدًا منها. فى حقيقة الأمر، ظللت على قناعة بأنه لا موضع للحساب فى هذا المكان.

للوصول إلى شارع فلاور ستريت من الكلية، عليك أن تجتاز الحى الجنوبى، المتهدم، فى كابول.

خلال بضعة أسابيع، تلاشى فزعى. اعتدتُ على أهداب تلك المدينة الممزقة الأوصال وبدأت تتولد لدىّ، مع من حولى، آمال أكثر تواضعًا من الأمل فى تغيير مجرى التاريخ. تنطلق السيارة فى طريق كارتيه سى. أحدق بعيون واسعة فيما حولى، وقد استنفرتُ كل حواسى.

ينطبع على شبكية عينى شريط متتابع من الصور الخاطفة دعوتُ الله أن يمكن لعقلى الاحتفاظ بها كلها: أفغان عجائز داكنو البشرة بملابس فضفاضة، يدفعون بانتظام دواسة دراجاتهم الصينية الثقيلة؛ علب سوداء لمصورين يبدو أنهم قد نبتوا على الأرصفة كنبات الفطر؛ مركبة تئن بحمولة أعلى مما يتصوره العقل؛ شاحنة باكستانية مزخرفة، منقوشة، يجثم فوقها أربعة رجال كانوا يغوصون رأسًا على عقب داخل أجولة الدقيق عند اقترابهم من أدنى أغصان شجر التوت. معالم شوارع وخطوط التفاف تتحدد هنا فى كل اتجاهات الرياح. وسط مفارق الطرق، يطهو جنود طعامهم على مهل تحت أسقف حديدية بلغت حرارتها درجة الغليان، ممسكين بقدح من الشاى، بينما يتهاوى بعض رجال الشرطة مرهقين فوق أرائك مكسورة. رجل ذو سحنة فظة يندفع جزئيًا عبر زجاج السيارة المفتوح وينحنى تجاهى ، مبتسماً حتى كاد فكه أن ينخلع. عازمًا تمامًا على أن يغتنم لنفسه دقيقة من اللهو، يسألنى الشرطى عما أفعل فى كابول. هل يمكننى أن أعلمه بدوره اللغة الفرنسية؟ خلف ظهره،

لتدفع خمس سيارات أجرة بانطلاقة واحدة داخل شارع صغير أضيق بالتأكيد من أن يتسع لها. مع صرير المكابح، يرفع الشرطى أحد حاجبيه.

هالنى هذا الكم من الروعة، فأخذت أرقب فى صمت تام ذلك التوازن بين النور والشذى، بين المناظر الطبيعية ونظرات العيون، مدركة تمامًا أننا رهن الوجود يفعل بنا ما يشاء. عندما يغيب النهار، أتساءل أحيانًا أين عساهم يكونون هؤلاء الذين يطلقون التهديدات ويزرعون القنابل. ماذا ينتظرون ليطيحوا بالمجتمع الدولى المتغطرس الذى يسهل مراوغته تماماً، طالما أن القنبلة تباع بثلاثة دولارات فى السوق وتُلقى فى الشارع بسهولة كعقب السيجارة؟

كثيرًا ما أُدعى إلى تذكُّر موضعى، كأن صفاء عيشى فى كابول لابد وأنه من قبيل الخطأ: مقصد التبس بآخر على سبيل الخطأ. لكن الأمر لم يختلط علىّ. فالسعادة الحقيقية تمامًا التى تسرى فى عروقى تنبض على وقع أسماء تلك الأماكن التى طالما حلمت بها، منبطحةً فوق الصفحات المقواة لأطالس بدت فيها تضاريس العالم واضحة وألوانه زاهية.

الخوف الذى يسكننى من نوع آخر تمامًا: فالمجازفة التى نخوضها ناتان وأنا ستكون لها عواقب لا نقدِّرها. الألم يعتصرنا ونحن نقضى، كل صباح، وقتاً أطول قليلاً قبل أن نرخى قبضة يدينا. والألم يستبد بأجسادنا، كل مساء، ونحن نطيل لحظة انفرادنا أحدنا بالآخر فى المكاتب الخاوية.

الفصل السادس

منذ عامين، هرب ناتان من حياته المنظمة إلى حد الرتابة ولم يعد يهمه سوى ذلك السلام الذى وجده فى أفغانستان. باتت مجرد فكرة الحب بعيدة عنه، بل تكاد تكون غريبة، وكأنها بلد الطفولة التى لا يعود إليها المرء أبدًا. فى الأكثر، احتفظ منه بعطر، ربما ببصيص من النور. على البعد، زوجة لم تكن أكثر من مجرد صوت تعتنى بأطفالهما. منذ أن كانت النساء تجتذبنه، احتفظ ناتان فى حدقتيه ببريق غريب يحتمل تفسيرات شتى. البعض اعتقد أنه مجرد زير نساء. وسخرت أخريات: لقد تجاوز ذلك العمر. الرقص وحده كان يذكِّره بحقيقة الدم النابض فى القلوب، وبالحقيقة، القاسية، لعرق يمتزج بنفَس ما؛ جميل الوقع إلى حد لا يشعر معه فورًا بأن ثمة حاجة جديدة عقَّدت حياته، مُوَلِّدةً فى نفسه ذلك الشعور العجيب بوجود حاجة ملحة، عندما يستدعيك الحب والرغبة فى التو واللحظة. مع انعطافة فى

نزهة ـ وهو الذى لم يكن يتنزه أبدًا ـ، مع تحول فى حكاية ـ وهو الذى لم يكن يتكلم ـ، أحس بأن الحياة قد دبت فى أوصاله من جديد.

ذهبت محاولاتنا لكبت مشاعرنا سدىً. بدا ألا شىء يمكن أن يمنعنا من أن يضم أحدنا الآخر، عندما مدَّ لى شاب بهيئة أمير يده. أحسست بين ذراعيه بشعور من هرب من قبضة العدالة إلى حكم غير قابل للنقض. أدركت أن بطء إيقاع قلبى، وانتظام دقات قلبه، هو الحب. كنت أضع خدى على كتفه، وأنظر خلفى كما لو كنت أرقب رمالاً كادت، قبل ثانية واحدة، أن تبتلعنى.

فى ذلك اليوم، ارتاح ناتان لعودتنا إلى رشدنا وبلغ حد تأييد اختيارى. عاد كل شىء إذًا إلى نِصابه... لولا مداعبة إصبعه لمفصل عنقى وهو يودعنى.

مررت ألف مرة أمام مطعم خيبر باس، كتلة خرسانية قاسية، مطلية بألوان ماسخة، كان اسمه الرنان كافيًا لأن يستدعى إلى ذاكرتى تلك الفكرة التى استحوذت علىّ تمامًا: خلف البناية غير الجذابة، كنت أحلم بطريق جلال أباد العجيب الذى يخترق شرق أفغانستان ويفضى إلى المضيق البحرى الوهمى. إن شدة الاهتمام بشىء قد تحجب عن أعيننا سائر ملامح المشهد الأخرى، لذا لم ألحظ أبدًا ذلك المبنى الضخم الصاخب بالأعمال المجاور للمطعم. لكن

اللقاءات جاءت لتتدارك هذا النوع من السهو: فبفضل الأمير الشاب الذى تثير رشاقته الإعجاب، أدركت بعينىّ أشهر مجمع لدور السينما فى كابول. عادت إلى ذاكرتى مقالات كنت قد قرأتها فى فرنسا: أسماء أعلى إعلان لا تدعك وشأنك أبدًا، كلمة "أفغانستان" كفريق. لكن هاهى تلك الأسطورة وقد انبثقت مع الضوء الذهبى المنساب عند العصر. لقد أحسنت، على كل حال، فقد ترك ذلك انطباعًا فى نفسى. لم يكن الأمر مجرد إقامة دار للسينما، بل كانت شاهدًا على عصر. أخذت الذاكرة تعود بالجميع. الأكبر سنًا يتهامسون، وينبهون بعضهم بضربات الساعد ويخبط أحدهم ظهر الآخر براحة يده مذكِّرًا إياه: "كنا ندخل من هنا، ونخرج من هناك!" ثم جاء أصحاب الحوانيت المجاورة إلى الساحة، مندفعين من هنا وهناك لتفريغ مياههم المستعملة أو لرص سلال ينتفض فيها الدجاج جزعًا. وقف المعمارى الفرنسى المسئول عن المشروع ذاهلاً، رافعًا عينيه إلى السماء طالبًا من الله الرحمة دون مجيب.

حال سياج من الأوتاد دون طفح المستنقعات الموحلة على قارعة الطريق، حيث اتخذ العمال المنهكون من أكوام الرمل مكانًا للجلوس. كان الشاى يهتز داخل الغلاية الموضوعة على الرصيف ذاته. لا أحد من هؤلاء الرجال يفكر فى العودة بسرعة إلى داره: كانوا فى خير حال، وهم جالسون هنا، والعمل مؤجَّل لما بعد. لفحت الشمس وجوههم وغُرِست

المجارف واقفة فى جمود حيث لن يحتاجوا إليها من الآن وحتى الغد. تبادلوا سيجارة محشوة بتبغ جاف تكاد لفرط جفافه أن تشتعل تلقائيًا، ولم تسلب زيارة اثنين من الغربيين شيئًا من متعة التأمل. أربعة وجوه ذات ملامح آسيوية ترقب المشهد فى صمت. ابتسمت، فابتسموا. من هنا تبدأ الخطوة الأولى، لتكون حكاية أخرى تمامًا. سواء شئت أم أبيت، ربما كانت تلك العيون المذهلة لتنهشنى قبل وقت ليس ببعيد. لا يهم، اليوم تغضنت الجفون وتشققت جوانب الشفاه. بخفة لا تصدَّق، تمدد عامل عجوز ثم انتصب واقفًا، لا يزيد طوله عن كتفى، وصاح فينا من بين اثنتين من أسنانه بأن نتبعه.

سرنا خلف الرجل القصير، وقد توارى رأسه خلف ظهره المحنى وكتفيه البارزتين. فى الظل الذى يلف قاعة بيع التذاكر، مضى بخطوات خفيفة، وهو يدور حول نفسه كريشة فى أركان كل جدار. تبعت كمن يهتدى بمنارة تلك القبعة البيضاء الصغيرة التى تبرق منها ومضات مرآة. احتذى الأمير حذوى. ابتسم العجوز، وركض بلا ضوضاء، مرتقيًا أربعًا بأربع، درجات السلم المفضية إلى المقصورات الأولى. أنقاض كابينة العرض. كان بوسعى أن أشعر بحشوة المقاعد، وأن أرى قماشة الشاشة الناصعة البياض، وأن أسمع أصوات المتفرجين الذين لا يطيقون صبرًا وصيحات الأطفال، الذين يعتقدون دائماً أن الوقت طويل للغاية. فتحت عينىّ، فوجدت كل شىء قد اختفى. لم يبق

سوى سقف مشقوق، بدت منه بضعة كمرات وحيز ضخم فارغ من أى شىء، مقسم إلى مربعات من فولاذ سقالات خشنة. تخطيت حصى الأنقاض. ولامست كتف الأمير كتفى.

عند مخرج متاهة من دهاليز تخترقها أشعة الشمس، فى رطوبة الأسمنت، أقيم سلم. من قضيب متخلخل إلى قضيب متزعزع، تسلقنا عبر مضيق خشبى إلى سطح من الصفاء. من هنا بدت المدينة بعيدة، وكأن ركام فوضاها قد تبعثر فى السماء: خمسة عشر مترًا من الارتفاع حجبت ضوضاء السيارات، واختنق أزيز المولدات فى الهواء الساخن. اقتادتنى يد الأمير الحانية على عارضة فوق الفراغ. انتابنى دوار لا أدرى مصدره دفعنى نحوه. فى راحة كفى الجافة شعرت بنعومة أنامله؛ بين أصابعى البيضاء بدت أصابعه أكثر بياضًا. ما أن اجتزنا الجسر حتى تراخت القبضة كأنما لإضفاء مصداقية على ذلك الدوار الأبله الذى اختلقته وحدى كى يمكننى أن ألمس الأمير.

تدلت سيقان ثلاثة عمال فى الفراغ وهم يتفحصون الأفق البعيد، وكأنهم ينتظرون شيئًا ما. أمسكوا بيديهم واقيات الوجه، وهم يشيرون بذقنهم إلى التلال المحيطة، ويتمتمون بأسماء قصور وأحياء تلاشت فى النور المعاكس. هب النسيم مع انتهاء النهار فانتفخت أهداب النسيج الأزرق. أشفق أحد العمال على عينين ضعيفتين لحرارة الشمس الحارقة، فتقدَّم

فوق عارضة كادت تتحطم، منحنيًا فوق الفراغ، وأمسك بلوح وضعه متوازنًا بمنتهى الرقة فوق الطائرين.

وسط الصمت، تبادلنا ـ نحن الاثنين ـ تدخين سيجارة، مستشعرَين متعة الملامسة فى كل مرة تتبادل أصابعنا مرة تلو الأخرى الفلتر الأبيض، وعهدنا إلى المدينة برعايتنا. بنظرة حادة وحانية معًا، تملكتنا دون أن نشعر رغبة فى العشق. حاولنا أن نتناسى ما كان يذكرنا به كل ما حولنا: أن لقاءنا جاء على سبيل الخطأ. ولع مشترك بالقراءة جهرًا ألقى بأحدنا نحو الآخر، عند مفترق الطريق بين رحيله ووصولى. كان موعد رحلة عودته إلى فرنسا محددًا بالفعل. لكننا تظاهرنا بأننا نجهله.

تقدم سير الأعمال الخاصة بسينما أريانا بدرجة كبيرة: فقد تم تركيب معظم النوافذ، بل حتى فى الواجهة بدأت الخزفيات تشكل مشربية عريضة. "انتهى جوهر العمل: والآن، نقوم بالزخرفة!" كان المعمارى فخورًا، فتجنبت النظر إليه، لخجلى من دهشتى لفرحته. خلف أسياج الأوتاد، داخل أكياس الأسمنت، عبر الشكل الهندسى للسقالات، لم أكن أبحث سوى عن شخص واحد، ضئيل بالقياس إلى ساحة التعمير الضخمة. أبدى المعمارى أسفه: لم يعد بوسعنا الصعود إلى السقف بعد ذلك.

فى أول ليلة بصحبة الأمير، حرصت على إعداد قهوة لم يقدَّر لها أن تجد من يتناولها. فى هذه الأثناء،

توارى كقط ساكن. أحببت هذا الاختفاء الناعم، حيث تتأجج نار الرغبة عادةً. فى الليلة الثانية، اقترب منى الأمير حتى اخترق كيانى. من طرف الشفاه، نجحت فى الكشف عن خبيئة جسده، حتى انطبعت على فمى تضاريس عظامه. إيقاع مكتوم يصل إلى أسماعنا بانتظام لثمرة تنفصل عن غصنها وتسقط متدحرجة فى العشب.

لكن الأمير سيرحل. كنت أعلم ألا شىء يُرجى من غيابه. بدا عليه الضيق وهو ينطق بكلمتين: "إلى اللقاء!" -واختنق صوته وهو يبتسم ابتسامة باهتة. تباعدت المسافة بين جسدينا رغم التحامهما. فى ركن عينيه الحزينتين، قرأت لهفة الرحيل والهلع مما ينتظره: أطيافه وأساه. لم يبق لى سوى أن أعود أدراجى.

على مَدرَج مطار كابول، انتظرتُ حتى اختفت طائرته تماماً فى السماء قبل أن أسلك طريق العودة إلى منزلى. بحثت عن دمعة استعصت على مقلتىّ. اهتزت المدينة بهدير المحركات وصرير العجلات على الأسفلت. فلما توقفت الاهتزازات، رن هاتفى مرة. ظهر اسم ناتان على الشاشة البلورية.

أفغانستان جافة كمعصم العجائز الذين يراقبون الشوارع. لكنها أيضاً عَفِيّة كجسد رجل صحيح البنية. لا يعادل جمالها سوى رصانتها وعنفها.

العالم المتوازن تجمع صورته كل العلاقات البشرية: حفنة من عذوبة، وقبضة من إعصار، كتف

حريرى الملمس نداعبه تارة؛ جسد بض يثير الرغبة بحدة خلجاته؛ ورجولة حارة، ملتهبة، تجتاح الجسد الأنثوى فيذوب استمتاعاً.

اختارت حمامة رمادية ـ وردية اللون حافة نافذتى لتبنى عليها عشها وأخذت تتفحصنا ملياً برفق. حمانا الظلام من النظرات التى كانت تنبثق فى كابول من كل ناحية. أخذت أتقلب بهدوء فى الفراغ، وقد أضنتنى عذوبة ناتان، وأنا أتمتم بتنهيدة ردًا على سؤال لم يطرحه أحد. تركت نفسى للمسة يديه الساحرتين: عريضتين، قويتين، شامة لا تخطئها عين، ولا يمكن أن تخطئها، تحت هزال العظام وبشرة الجلد. نوبات متعاقبة من فيض عذوبة لا متناهية وعنفوان رغبة غريزية. تعلقت بزاوية رقبته. كان يفوح منها عطر خفيف ملأت رئتىّ به. رائحة انطبعت علىّ قبل أن تنساب إلى طيات ملابسى. بعد ثباتها، ستزول حدتها. لكنها ستظل تنبعث فورًا مع أول حركة أهُمُّ بها وحدى. وحدى دائمًا رغم ذلك، دومًا بدونه، كان هذا شيئًا غير متصور على الإطلاق.

صعدت تلك الليلة إلى سطح منزلى الطينى. لا أثر لنجمة واحدة فى السماء، ولا وجود للقمر. شكَّل غبار المدينة المتجمع على حافة السماء هالة رمادية ضخمة: سحابة معتمة تنبثق منها الحرارة. كانت نهاية الشتاء، والبراعم قد أطلت برأسها. عشر شتلات من أشجار الورد بانتظار ارتفاع الحرارة درجتين حتى ترتفع إلى عنان السماء.

الفصل السابع

فى الجامعة، كان نهار واحد قضيته فى أروقة الإدارة كفيلاً بنفاد صبرى على قلته. لكنى انطلقت بثقة فى تلك الجولة من مكتب أزيل ملاطه إلى آخر، وشعرت بالبهجة فى ذلك الممشى المؤدى إلى المجمع الإدارى للتوظيف. لم تكن المسألة تستحق سوى ساعة أو ساعتين. استعنت بمترجم أفغانى لم يكن انفجار قذيفة مدفع بقادر على إزالة فتوره أو تسريع طريقة نطق كلماته ... يمكننى القول إن الفجوة بين الثقافات لم تبهرنى قط فى ذلك اليوم، ولا بطء الوتيرة ومظهر الأزلية البادى على العجائز فى مراكزهم والعمداء فى لباسهم الرسمى. لكنى وجدت نفسى مضطرة إلى اعتناق قضيتهم: فمن يخطئ هنا متناسيًا أن الحياة كلها أمامه سيختنق فى التو واللحظة.

فى بيتى، لم تصلنى الكهرباء: لا يلتمس المرء هنا معجزة من هذا النوع. بل يتعين انتظار ما يجود به الله. ثمة خطأ أزلى يحكم العلاقة بين العلى القدير

وأرقام بيانات عدّادى. هذه هى تحديدًا اللحظة التى اختارتها مجموعتى المولِّدة للكهرباء وهى تشهق تحت وطأة غلاية وحيدة لتلفظ فى وجهى سحابة من الدخان. كانت هناك إذًا حاجة ملحة. لأن أصنع الفراغ؟ أو الامتلاء؟ آه لو علمت أيهما يتغذى على الآخر: المداد أم الدم! القلب أم البارود، لغز محير، يبعث الخوف فى النفوس إلى حد العدم. عندما يتربص بنا الوجود بدوره، نتشبث بما يتبقى لنا جسدياً: رئتان جديدتان لتدخين سيجارة، وصورة كادت تعلوها الغشاوة تعكس بها المرآة هزيمتنا. فى تلك المرآة ذاتها، تخيلت الأسبوع الماضى، فى وضع جانبى مقوس، طفلاً يضفى استدارة على بطنى، مؤمنةً بالحب بضراوة تفوق تشبث قديس بصليبه. لكن الجميع معرَّضون للخطأ.

نعم، إن السماء لا تمارس علينا بالتأكيد حرب استنزاف. لكن إصرارها على تناوب موجات من حرارة الشمس الملتهبة تعقبها زوابع ملحية سيقتلنى ذات يوم. إن أفغانستان بلد عجيب إلى أقصى حد، أتيت إليه بمعجزة، بقرار رسمى من نجم حسن طالعى. أفغانستان بلد مبهر، لكنه كغيره لا يقدم علاجًا لأعاصير العبث.

انتهى عقدى الممتد لثلاثة أشهر. وعلىّ أن أعود إلى فرنسا لتجديده. هل شعر فيصل، الذى كنت أعطيه دروسًا خصوصية، إلى أى حد كان الألم

يعتصر قلبى؟ دعانى يوم الجمعة الأخير للمشاركة فى نزهة معه هو وسهيلة.

قبل تعيينه نائباً لوزير الصحة، كان الدكتور فيصل مع تحالف الشمال(*). لم يكن مقاتلاً بشكل مباشر، كما أنه لا ينتمى تماماً إلى المجاهدين. لكن "بشكل غير مباشر نعم". أما الجنرال السيدة سهيلة سورخابى "-صاحبة المعالى"-، وزير الصحة، فقد اجتازت حقبة طالبان بلا خصومة من أحد.

جلس فيصل يدخن بهدوء على المقعد المقابل، وقد توارت قدماه تحت أهداب ثوبه التقليدى بلونه البيج الفاتح. كان وجهه المستدير الشاب يعكس ملامح الإجهاد: بدت الراحة فى يوم الجمعة هذا مستحقة تماماً. قفزت صاحبة المعالى، بشعرها الرمادى المرفوع فوق حاجبيها المعقوفين، بخفة داخل المركبة المرتفعة، يلفها اللون البنفسجى من وشاحها حتى جوربها. أما السائق الصامت، فلم ألمح منه سوى قبعة صوفية تبرز من مسند الرأس. أحسست بالعوارض الأرضية، بالاهتزازات، بوعورة درب الحياة، وكل انخساف قليل فى قارعة الطريق يستدعى إلى الأذهان الخط المسمارى الأصلى.

الشعار المميز عند مَخرَج كابول هو لوحة ضخمة تحتل صورة أحمد شاه مسعود ثلاثة أرباعها، وتعكس

(*) تحالف القوى المناوئة لطالبان، وكان أحمد شاه مسعود هو العنصر المحورى فيه.

أزهار السوسن البنفسجية ألوان قوس قزح. تحت هذا الرسم، أخذ بعض الصبية بوجوه غابرة يلعبون كرة القدم. هنا كما فى كل مكان آخر، يكمن جل المشكلة فى الصبية الصغار: ترى بأى حجر، بأى صدارى صوفى تتحقق الأهداف؟ قذيفتا مدفع منصهرتان ويُقضى الأمر. حول مضخة يدوية تتدافع فتيات يحملن قِرَباً بلاستيكية يملأنها بماء ثمين وإن كان موحلاً.

تمتد أرض أفغانستان على مرمى البصر - إلى أين؟ -، تتخللها بقع من أغنام وخيام تلفحها ريح تحدد سرعتها كيفما تشاء. مررنا بعربة يد فاضت جوانبها ببالات قش. أتيح لى بالكاد الوقت الكافى لألحظ بريق عين شائخة تبتسم وسط أطلال منازل، وكتل جدران كأنها خرجت من بين أسنان عملاق. هنا يقع خط المواجهة بين تحالف الشمال وعناصر طالبان.

وسط هذا المشهد تنبثق من الزوايا والقواطع أحجار مصقولة، بيضاء تارة، وحمراء تارةً أخرى، يتحدد لونها تبعًا لما إذا كانت الألغام قد أزيلت من الأرض أم لا. اليوم عطلة عمل لعمال إزالة الألغام، خشية الموت يوم الجمعة، والمدارس التى أُعِدَّت بارتجال أسفل صوبات النبات لا تؤوى سوى الظل وبعض عقارب بيضاء اللون. عندما نقترب بسرعة من أحد المنحنيات، هل تنتهى الحياة فى أقل من لمح البصر؟ هكذا الوجود هنا: حرمان من حقل هنا، أو مبنى هناك، أو من مجرد طريق صغير. ذات يوم، ربما

سرنا هنا دون أن نرتاب فى الأرض. وإلى ذلك الحين، يتكيف المرء مع الشك. فوق هياكل الدبابات المحيطة بالطريق، وعلى شقوق الجدران، خُطَّت العبارة التالية بحروف كبيرة: أزيلت الألغام... لكننا لم نعد نملك شيئاً للسيقان المبتورة. خلف شاحنة تنهب الطريق الوعر نهبًا، أخذ رجلان بساق واحدة يصفقان بيديهما، مصاحبَين لرقص رجل ثالث. عند حلول السقطة المحتومة للبهلوان، تتعالى الضحكات.

عباءات زرقاء وحقول بلون التفاح الأخضر ونسيج أحمر يحمى شادر بطيخ. عند مدخل حى سراى كوجا، تعكس قاذفة صواريخ أشعة الشمس التى احتمى منها الرجل الأكثر فطنة: بسط فراشه تحت أغصان شجرة تين، يكفيه أن يمد يده ليقطف ثمارها. الهواء الساخن يلفح البشرة ويعقِّد الشعر. عند إفريز متجر قَصّاب، عُلِّقت بالمقلوب ذبيحة خروف.

كيف أتغلب على فكرة أن تلك الرحلة ليست رحلة بالمعنى الحقيقى، بينما أنا على الطريق بالفعل؟ إن ملابسى تنم عن ذلك: نظيفة، أنثوية، لائقة، منتقاة. لا أحمل فى جيبى أى جواز سفر. نقود تكفى يومين. كل ما علىّ هو أن أترك مقاليد الأمور لغيرى. كم هو جميل، أحياناً، أن يتخفف المرء من حمولته ويطلق لنفسه العنان بثقة! استغرق فيصل فى النوم. وأخذت سهيلة تدخن فى شرود إحدى تلك السجائر الباكستانية القصيرة المحشوة بتبغ داكن للغاية.

التقطت بطرف عينى صورة لفريقنا شبه الأبكم، فالصمت يقدرً هنا بقيمته الحقيقية.

حركت "صاحبة المعالى" يدها بطريقة الأطفال الصغار، والتفتت نحو كهل : ترمقه بابتسامات صافية. ينقسم الدرب مفضيًا غربًا إلى مزار الشريف وسهول آسيا الوسطى. بطرف عينى، تتبعت ذلك الخيط الأرضى الآخذ فى الانحسار، حتى اختفى تمامًا. تقلص جسدى بأكمله كما لو كان السير فى الطريق لا يعتمد إلا عليه. مرقت مركبة بمحاذاتنا، ودون حتى أن يستعلم حتى عن مقصدنا، صاح السائق: "انتبهوا! إنكم تسلكون الطريق الخطأ!" أجاب فيصل بنبرة قوية: "إننا نعرف الطريق! نحن من المجاهدين ارتسمت ابتسامة: إن أحمد شاه مسعود هنا، فى الخلفية ، يوحد ويؤلف بين قلوب مجهولين يتقاسمون الشهادة.

قرية كوهستان، مقاطعة كابيزا: لا شىء يشير إلى وجودهما، لكنهما لابد موجودتان. صبى صغير يجر وراءه بطارية متأكسدة بين حاويات أمريكية. خمسمائة بطيخة جاهزة لدحرجتها فى أول مبيعات ستغادر بسطة البضائع. لافتة تدور عند مرور عربة يجرها حصان تغطى عينيه شُرّابات، منتشيًا بجلجلة أجراسه. بعيدًا، وقف مصلحو حدائد الخردة ولحّامو البوابات ينشرون كل ألوان الطيف.

تعثَّرت "صاحبة المعالى" فى سيرها بحذائها ذى الكعب العالى، متذمرةً ببضع كلمات استعصت على

الدرجم. تقدمنا حتى بلغنا نبت حراج تتخلله بقع من الشمس، وُضعت به أبسطة ووسائد حمراء قانية. كان الشاى فى انتظارنا. هب شابان يافعان واقفان عند اضطراب سهيلة. وكذلك فعل عشرون رجلاً: قائدان وثمانية عشر طبيبًا من كابول. لم يكن احترام الرجال الوزيرة بحاجة لكلمات. أخذ الهواء يهز أوراق الأشجار كأنها أصداف محار. يمكننى أن أدون ملاحظات دون أن أسبب إزعاجًا لأحد. استسلمت الطبيعة، شاخصةً بعينىّ إلى السماء، مأخوذة تمامًا بهذا الحاضر، ربما لأصرف انتباهى للحظات عن التفكير فى ناتان وفى الكتابة. رُفِع الشاى بذات البطء البالغ المصاحب هنا لكل حركة: كل شىء يجرى فى إطار من العدم.

اختفى فيصل. ولما عاود الظهور، منبثقًا من أسفل أشجار التوت، مد إلىّ ثمالة قدحه بعين لامعة معتذرًا بقوله: "آسف، يا أستاذة! كنت أحتسى كأساً صغيرة مع القائد ... من المجاهدين يا أستاذة! فضلى: إنه كحول!" كان له نصيب من إخفاقات لم يساوره أدنى شك فى عواقبها. أبدى القائد ملاحظة: الاستراتيجية، إنه يفضل عدم الخوض فيها يوم الجمعة. بعد انضمام فيصل إلى المجموعة، أطلق لنفسه عنان البوح بالأسرار: حامد كرزاى؟ جاسوس لحساب الولايات المتحدة. فرنسا؟ تركت فى نفسه ذكريات عذبة: قوارب النزهة، الطعام، نجمة عارية على غلاف مجلة. كان احتساء كأسين كافيًا لتشويش

نظرة فيصل، الذى قرر اليوم تناسى الدور الذى أسنده له التاريخ. اختفى نائب الوزير بعد أن انفكت أساريره واسترخى جسده. تلاشى النهار فى ريح اشتدت حتى كاد يصيبنى الرعب من أن تتبدد لمحة الصفاء من وجه أناس يدركون قيمة الدقيقة فى عمر الزمن. حان الوقت لتؤدى سهيلة صلاتها، فاستأذنت السيدة للانصراف بانحناءة نصفية رقيقة.

اصطحبتنى فروهار، ابنة المالك، لدى نساء لا يخرجن طيلة الحياة خارج محيط الأفران. طبيبة نسائية فى كابول، والدة الفتاة لا تظهر على الملأ، إما لأنه غير مسموح لها، أو لأنها لا تجرؤ، أو لأن الفكرة لم تراودها من الأساس. أم، جدات وعمات وجارات يرتّبن وسط سحابة من الغبار وسائد على جانب حجرة صغيرة. جلسنا فى صمت مطبق. ارتدت كلٌّ منهن ملابسها وتزينت من أجل ربع ساعة هى مدة زيارتى. جاء أحد أبناء الأعمام ليخل بنظام هذا الاجتماع. كانت رائحة الكحول تنبعث من أنفاسه، ونبرته عدائية. أشار بإصبعه إلى صورة لأحمد شاه مسعود، وسألنى: "أتعلمين من هو هذا الرجل؟ أتدرين من قتله؟ أتعتقدين أنه كان رجلاً عادلاً؟" ساءنى الاستجواب، لكن كان ما خشيته فوق كل شىء، هو تمدد رقبته من الجهتين: أوداج منتفخة تنبض بالعنف.

كنت أتأهب للابتعاد عندما استوقفتنى فروهار. عرضتُ عليها أن تأتى معى، لكن الفتاة كانت خائفة:

ثمة رجال كثيرون هناك! لا يمكننى مرافقتك!" جذبتُها نحوى. تشبثَت يدها الصغيرة بقميصى. ابعتنى الفتاة حتى مكان الرجال، وتكومت على وسادة وامطرتنى بوابل من الكلمات. تريد أن تصبح طبيبة، كأمها. بعد أن أنتهى من تناول مشروب الدوق(*) سوف تصطحبنى لرؤية أشجار التوت والموضع الذى كان يختبئ فيه ثعبان بالأمس. آه لو أمكننى أن أبقى بالقرب منها، هنا، فى كوهستان! هأنذا أنتشى بهذا الهواء الذى لا تفتأ رقعته تزداد اتساعًا، مبهورة بهذا الزمن الذى يمر بسرعة وبكلمات تلك الصبية الصغيرة التى استحوذت علىّ بالفعل بحب لا يتزعزع. لكن البالغين متقلبون ودائمًا ما يرحلون.

أعاد المساء مزج كل الألوان. عاد تتابع مشاهد الحياة طوال الطريق: طفل يحمل جرابًا على ظهره البارز بداخله صفيحة مزيتة من أقذار المراحيض، كهل حزم بعناية بندقيتين طويلتين كالصنارة فوق حاملة الأمتعة فى دراجته، دراجات نارية سوفيتية الصنع زُيِّن مقودها بزهور بلاستيكية. رجال يتسوقون، حاملين بنادق كلاشينكوف على ظهورهم، يدخنون ويحملقون فينا. عجبًا، لم هذا الحب لهؤلاء المتشردين، بوجوههم التى لا تنم عن وداعة أو رقة بل وتثير شيئًا من القلق؟

(*) شراب مملح باللبن الرائب.

الفصل الثامن

منذ وقت طويل، بات أذان الفجر لا يقلق مضجعي: لقد أسندوا له دورًا في تركيبتهم. فإذا سمعت صوت المؤذن فجأة، ربما استيقظت من نومي وجلة بحثاً عن صوته الصافي، الذي بات ضرورياً لي.

في كابول، كل ليلة وكل يوم جمعة، يبدو أن حبال الصوت قد انقطعت. عاصمة بلا أي ضوضاء. في المساء، يلازم الجميع بيوتهم. ويوم الجمعة، تتجمع العائلات. في تلك اللحظات التي تتعطل فيها الحياة، كان أزيز طائرة ما يأتي أحيانًا ليهز الزجاج الهش في منزلي. إن كابول تعرف كيف تصمت. في أيام العمل، تضج بضوضاء الشرق، صخب الأسواق، عمليات البيع بالمزاد، دوي الأصوات، المشاجرات بين الرجال. تداخل مختلف عما تبثه وسائل الإعلام.

عندما يغدو البعيد قريبًا، تتبدى الحياة بكامل معانيها. قد يغيب عنا ذلك التماسك، لكننا نخمن رغم ذلك أن شيئًا ما في سبيله للحدوث، ينبئنا بأننا لن

نكون غدًا بنفس هيئتنا اليوم. هنا يشعر المرء بأنه فى بيته، مجرد ضيف لكنه فى داره رغم كل شىء: إلى حين، بلد كان مجرد خرافة بات مأوانا وملاذنا. مع تواضع فتحات الأسوار، يحاول المرء أن يتضاءل قدر الإمكان لكنه يستقر رغم كل شىء. نسعى جاهدين إلى كتم ضجة خطواتنا وكمد أوهن أنفاسنا. ومهما استاء أولئك الذين ظنوا أنفسهم أفغانًا، فإن الأجنبى النزق دائمًا ما يكون كثير الجلبة. ليس لأنه لا مكان للصمت هنا أو هناك: صياح، إطلاق أجهزة التنبيه، هياج، بكاء من جانب البعض. لكن ثمة أصواتاً لا يمكن أن تذوب فى غمرة أصوات أخرى: عندما ينطق صوت أجوف بكلمات لا يسمعها سواه. عندما تنطلق فى الشارع فجأة خصلة شعر أفلتت من تحت وشاح، فينظر الجميع. وفى كل مرة يُظَن أن حركة، حمقاء، غير محسوبة، كفيلة بإزالة التباس فتخلق مئات غيره.

كان هذا النهار من ذلك النوع الذى لا يضاهيه فى هدوئه سوى أكثر أحلامنا جنونًا فى أن يسود هدوء لا تشوبه شائبة: سلام مطلق. ربما كان المرض هو ما أصابنى برعشة تلك الليلة، فأصبحت بجسد واهن تمامًا. نعم، ربما كانت حالة التداعى هذه، مع دوار خفيف عند استيقاظى وحرص فى حركاتى لشكى فى إصابتى بالحمى، هى التى جعلت من هذا اليوم الساطع دومًا بضوء الشمس نوعًا من التراتيل الجديرة بالتأمل.

أمضيت الصباح متجولةً فى الحديقة، أقطف ثمار التفاح والعنب وقد تملكتنى فكرة مبهمة أنى لم أفعل بها شيئًا، بينما كان الهدف بالأخص هو الاستمتاع بتلك الحركات التى لا هدف لها. من وراء الجدران يتراقص معيَّن صغير بحركات عصبية: الحلمية تموج بالألوان الوردى والأخضر والأصفر والأزرق السماوى. جلستُ على الأرض محدقةً بعينى إلى أعلى. انقطع الخيط الذى كان يربط الطيارة الورقية بيد طفل. أخذ الهواء يحرك اللوحة المندفعة عالية حتى اجتازت حدود مربعى السماوى.

كانت هناك ثلاث أشجار تفاح وصفان من كروم العنب كلها مذهبة بأشعة الغروب، إلى جانب خمس شتلات من أشجار الورد ثلاث منها مزهرة وشجرة جميلة لم أعرف نوعها. عند انتهاء العصر، انساب صوت الأذان فى الهواء بينما كانت القطط، من سقف إلى سقف، تتعارك وتموء وتتدافع. وقفت أرمق الضوء وهو يتحول إلى اللون الذهبى. لابد من الاحتفاظ فى جزء من الذاكرة بصورة دقيقة لهذا الفيض من العواطف. التزمت الصمت. أفزعتنى تلك الجدران. كانت أصابعى غير معتادة على مفاتيح منزلى، تبحث عنها ويختلط عليها الأمر دائمًا.

قبل أن تصل الكهرباء، ومعها الشعور بالتغيير، أوقدت أربع شمعات فى حجرتى المطلية باللون الأخضر، ذات السقف الأزرق. كانت الحواجز

الداخلية للنوافذ عريضة لدرجة أنه يمكن للمرء الجلوس عليها: هنا مرصد أثير إلى قلبى بالأخص.

بينما كنت أنعم بسعادتى، تناهى إلى سمعى عبر جهاز لاسلكى دولى، أصابته معجزة لا أجد لها تفسيرًا، حديث عن أفغانستان. جعلنى اسم ذلك البلد الذى أحيا فيه فعليًا أرهف السمع، بسعادة من تبتهج بلهفة لسماع أخبار ما تحبه. لكن كان فى ذلك تجاهل لحقيقة أن أفغانستان ليست فى نظر الكثيرين سوى مرادف لفظائع وحشية وأخطار محدقة وموت محتوم. هكذا، بينما كنت منتشية بهذا اليوم العذب والبديع، الحار والوديع، جاء صوت فى المركز العسكرى يعلن أن منزلاً قد قُصِف بهجوم صاروخى، فأودى بحياة سبعة أشخاص فى ضواحى كابول، قرب القاعدة الأمريكية فى باجرام. وكانت نهاية البرقية أن الوضع فى أفغانستان - يرتفع الصوت - ما زال - ينخفض الصوت- كارثيًا للغاية. لا شك أن هذا الانفجار قد وقع، وهؤلاء القتلى لقوا حتفهم. لا ريب أن جنودًا كنديين قد أصيبوا فعلاً بألغام مساء أمس، كما علمت للتو. لكن ما علاقة ذلك بهدوء ذلك اليوم الذى نعيشه؟ والطيارات الورقية المجنونة كتلك، الزرقاء والوردية التى تهاوت تحت أغصان شجرة التفاح وضحكات الصبايا فى الفناء المجاور؟ هل اختلقت كل شىء؟ ألم يكن النهار وادعًا، وصوت المؤذن منتظمًا، وحركات سكان كابول شبيهة بحركات الأمس وحركات الغد؟ ربما قال قائل إنه لا علاقة لكل ذلك بالموضوع.

هذه المعلومات، التى انطلقت وكأنها تذكير بأن
..ا أفضل من أى مكان آخر، جرى بثها على موجات
الأثير بلا أدنى تعليق. عندئذٍ، فوق أحد جدران
..زلى، على سبيل السخرية من تلك الأكذوبة التى
..ات منا جميعًا، الموجودين هنا للعمل، أبطالاً بواسل،
..ت بتثبيت مسمار. كان يدعم وحده زوجًا من
الأرفف اشتريتهما تحسُّبًا للشتاء المقبل. لكن ربما لن
يكون الجو باردًا، بل قد لا يأتى الشتاء هذا العام.

الفصل التاسع

على المَدرَج، أقلت عربة شركة أذربيجان للخطوط الجوية المسافرين بمجرد تعرفهم على أمتعتهم الملقاة بلا نظام تحت جناحى الطائرة. يُعَدّ مطار كابول أحد اخر المطارات التى ما زالت تتقبل هذا النوع من المحركات: مدخنة لا يمكن أن تسمح بها سوى شعوب فى غاية الإيمان بالقدر. بمعدل ثلاث مرات أسبوعيًا، كانت الطائرة السوفيتية القديمة الطراز تطير من وإلى عاصمة أذربيجان بأزيز مراوح غير مضبوطة أو ربما غير محكمة. كان المرء يضع يده على قلبه عند احتكاك خطوط الأنابيب قبل أن تلامس العجلات الأرض بخفة. بعد ساعتين من الطيران، تصبح مجرد ذبذبة طويلة. كان ذلك هو أقل ما يجب كى نقدِّر فكرة وصولنا إلى باكو حق قدرها. أما استئناف السفر إلى باريس أو لندن أو جنيف فلا يكون إلا فى اليوم التالى. مقابل ٧٥٠٠٠ مانا(*) تقلنا عربات أجرة من

(*) مايعادل حوالى ١٢ يورو.

طراز لادا بمستوى الأرض إلى وسط المدينة. كان السائق يقبض على المقود بيديه وكأنه جناح طائر هزيل. توقفت السيارة على صوت صرير العجلات في ساحة فندق أبشيرون حيث ينتظرنا دائماً مُرافق: كان المسافرون العابرون من كابول هم الزبائن الوحيدين لهذا الفندق المهدم، وكأنه أثر من آثار الإمبراطورية السوفيتية على شاطئ بحر قزوين. أربع وثلاثون سيدة يشرفن على الطوابق ويضعن أحذية خفيفة في أقدامهن، بشعر ملفوف وثياب منزلية، يتحدثن اللغة التركية المهجنة بالروسية وينطقن كلمة سلام بنبرة لاذعة.

شعرت بالأسى لمغادرة أفغانستان، رغم أن الأمر لا يعدو فترة تواجد قصير في أوروبا، بقدر ما يحتاج التوقيع على تمديد عقدي. كانت نهاية شهر أغسطس، والحرارة القوية تلفحنا على الأسفلت. وقف معظم الرجال مشمَّرى الأكمام؛ وأزاحت النساء وشاحهن على أكتافهن، وهن يرمقن الجنود بنظرات تنم عن تحدٍّ، لم يلبث أن تحول إلى شعور بالانتصار. على بعد بضعة أمتار إلى الخلف، كانت أفغانستان لا تزال هناك: لكن ذلك الطرف القارى المنبعج، الذى تحرر مؤخرًا، ما لبث أن اكتسب مظهرًا دوليًا إلى حد ما: منطقة لم يعد للأفغان عليها من سلطان. نظرت، على بعد عشر خطوات، إلى هياكل المروحيات القتالية، وقد مالت على جنبها. ارتاحت نفسى لرؤية شفرات مراوحها الملتوية ومقدماتها المنبعجة: ما زلت فى

كابول. مع تقدم المسافرات من جنسيتى نحو السلم، متجردات من ثيابهن بضحكات صاخبة تعبيرًا عن الحرية المستعادة، تدثرت من جديد بحجابى. كان هذا الرحيل شبيهًا بتخلٍّ عن كل شيء. لم يخفف شيئاً من شعورى بالذنب إدراكى أن الأمر لا يعدو مجرد ابتعاد لأسبوعين. تركت ورائى هذا البلد الذى أضحى بلدى، وسكننى القلق لفكرة أن تتغير الريح وتمنعنى من العودة إلى دارى. فى آخر الرصيف، ارتسم طيف ناتان كشكل هندسى صغير داكن تمامًا فى اتجاه معاكس للشمس. كانت أهداب سترته هى التى تتراءى وحدها مع لفحات الهواء العنيفة. من شكل إحدى ذراعيه، مطوية على نصفها الأعلى، خمنت أنه يدخن سيجارة. طالما لم أختف عن المَدرَج، ليبتلعنى قلب الطائرة، كنت أعلم أن ناتان لن يحول للحظة نظره عن تلك النقطة البنفسجية التى يرسمها وشاحى فى المشهد. طالما لم تغب الطائرة تمامًا فى الفضاء، ما كان له أن يبرح الرصيف. وكان يبكى أيضًا، فى صمت.

فى أوروبا، قضيتُ وقتى فى الانتظار. انتظار العودة إلى أفغانستان. لم يكن الليل يجلب معه سوى سهادى. كان مصدر انبهارى الوحيد، طوال تلك الفترة، هو سحر الهالات البرتقالية اللون المحيطة بأصغر الطرق، حتى أن النهار لا يتلاشى كلية. يا لبلاهة الإنسان، عندما تصبح عيناه بلا جدوى، ويا لضعفه عندما لا تعدو حركاته أن تكون مجرد حس

حيوانى! مثل هر صغير، يقطب جفونه محاولاً اختراء
الليل الذى يزعجه، يبسط يدًا لا تلبث أن تمتد حتى
تختفى، يبتلعها ظلام ترصدُنا فيه دائمًا زاوية ما
أخاف الظلام ولا أخفى ذلك. هى أصدق نقاط
ضعفى. أخشى السقوط، وأخاف المهالك والضربات
يرعبنى الألم وأفزع من العدم. ترهبنى إلى أقصى
درجة دوامات الريبة.

أخيرًا، عدت إلى كابول. خلال غيابى، انخفضت
الحرارة بشدة، لكن المطر تمنَّع. هكذا تُحَدَّد مقننات
الكهرباء وتُوزَّع بتقتير لا يُحتمَل يذكِّرنى بهذا العمل
الهائل الذى ينتظرنى: أشعر بأن خيطًا قد انقطع
علىّ أن أجد طرفه. هل كانت بضع ساعات من
الطيران وعطلتا نهاية أسبوع فى فرنسا كافيه
لانحسار نظرى إلى هذا الحد؟ يا إلهى أين عساى
أكون قد أضعت ملَكة رؤية الحياة بالمجهر والانبهار
بها؟ فى كابول، لا تأتى الكهرباء إلا ليلاً ولا تلبث أن
تختفى ودون سابق إنذار. هنا، جعلنى انقطاع التيار
أفقد توازنى فى النهاية. عندئذٍ أتحرك كحشرة، أضع
فى كل حجرة وفى كل ركن منها شموعًا مضحكة
يطفئها الهواء.

أما ناتان، من جانبه، فقد استغل كما اتفقنا فترة
غيابى ليصل إلى قرار نهائى.

لن يتركنى أبدًا.

ولن يتركها أيضًا.

كان وجهه لا يزال منعكسًا فى المرآة عندما تهشم الزجاج على الأرض. لا حد لعمق الألم عندما يقرر أن يصيبك به أن يتلاشى: الأذن التى كنا تحتضنها قد أغلقت، لتحرمنا من أبسط تعبيرات العجز. سرعان ما تخلى الدموع مكانها لعناء بلا إحساس ينبع من خلايا القلب الأقل قابلية للشفاء. كان ناتان يقول، فى حالة من البلادة هى الوحيدة القادرة على أن تمنيه شعوره بالألم: "ما أضعف الإنسان!" لم يكن ثمة ما يدعو إلى الضحك، ولم أضحك، لكنى رصدت الواقع يتعلق بشفتيه فى حالة ذهول تام.

قد يبدو مثيرًا أن يكون المرء مجرد تيار هوائى عابر: فقد يجعل من نفسه فارسًا مغوارًا لمجرد أنه قبل أن يكون لا شىء. لكن جلال اللحظة يتبدد، وتعود الرعشة تعربد فوق الظهور. نتمنى رغم كل شىء أن يكون للعالم معنى أكبر. نخوض معارك، ونمضى فى مسالك، ونسعى للوصول إلى دروب مبهرة يتوارى فيها صب لا نهاية له. وفى غمرة البحث عن الخلود، ندرك ان كل شىء مآله الزوال مهما حدث. وددت تلك الليلة ان أكون كوكبًا، نجمًا: شيئًا ما من هذه الأشياء الأقصر عمرًا.

الفصل العاشر

لبثت أنتظر مرة أخرى داخل هذا الرواق الذى انتهى بى الأمر إلى اعتياد حالة تداعيه. حشد من الطلبة وجلبة أصوات وسط ممر. وقفت أنتظر، والتأمل. كانوا فى العشرين من العمر ويجهلون تمامًا ما استشعره من نشوة وأنا أرصد وجوههم. كمرآة عاكسة للحياة كما يعكس الزجاج الضوء، نقلوا إلىّ بساطة وجودهم كأطفال يتشبثون بأرجلنا، فيثبّتوننا بإحكام إلى الأرض لحظة أن نكون قد قررنا مغادرتها. وإذا كان يمكن لهؤلاء الأطفال أنفسهم أن تتملكهم القسوة، بذات العفوية المحيِّرة، لا يجب أن نرى فى ذلك سوى الصدق: إنه عمر تتحقق فيه الاستقامة تلقائيًا، عمر سرعان ما يتجاوزه المرء قبل الأوان دائمًا.

وقفت أنظر مع طلبتى، أنظر من خلالهم، أنظر إليهم، هم أنفسهم، وإلى العيون الرمادية لأحدهم. هل يساهم يدركون مدى سعادتى؟ استحوذت علىّ أصواتهم، ودارت رأسى، فما عدت أدرى ماذا أنتظر.

هكذا مضى الأمر. فجأة أصابتنى آلاف القذا
من داخل جسدى، فاستعدت البصر. بدا الرواق و
جديد، كتلك الكلمات التى يستمتع المرء بتكرارها م
مرة لمجرد متعة سماعها وهى تفقد معناها ووقع
لتغدو فجأة غريبة على المعجم. كومضة برق عبر
حاجز نسيانى اللحظى، يتجمع الحاضر والما
والتاريخ فى جسد كهل ووجهه وحركاته. بخط
صغيرة، شق الهيكل المحنى الموكب، وعيناه مشدودا
إلى زوج من النظارات أخذ يقلبها ويعيد تقليبها م
جوف يدين كأنهما من ورق البردى. كان الهيك
الحاضن للزجاج السميك ينتهى بسلك مطاط با
وُضع لتثبيت الساعدين، كيفما كان، خلف الرأ
العديمة الملامح. بدا الكهل بلباسه التقليدى(*) مشغو
البال، وهو يذرع جيئةً وذهاباً جبلاً من الكرا
المخلعة: كان السلك المطاط ينقصه سنتيمتر واحد ك
يمكن تمريره خلف العمامة الرمادية. رصدت ف
حركاته بطئاً فائق الوصف، تلك الرزانة الأليمة الت
يفرضها العمر. ثم توقف وأخذ يبحث بنظراته ع
شىء ما. توقف جيشان الأصوات من كل جهة. لكن لا
فخلال ثانية، استدرت إلى الوراء لأكتشف أ
الضوضاء لم تنقطع أبدًا. لكن نعم: لقد توقفت كلي
لحظة أن قرر الكهل أن يتجرد من العالم ، حاملاً إيا
معه فى قفاعة صمته؛ حيث كان شغله الشاغل ه

(*) زى رجالى مكون من سروال وقميص بأكمام طويلة، يصل إل
الركبة.

معرفة كيف، كيف يا ترى، كيف إذًا، يمكن تثبيت نظارة من فوق عمامة.

فوق الحافة العريضة لنافذة بلا زجاج، وضع الكهل عمامته بعد أن رفعها من على رأسه وكأنها تاج. لم تعد العمامة قذرة، ولا باتت متفتقة، بل مرصعة بالزمرد والأحجار الكريمة والياقوت الأحمر. لكن ثانية مرت، وتحول الحارس العجوز لإحدى كليات الطب، العارى الرأس، إلى طفل أخرق.

عندئذٍ طرفت عيناى دون سبب يُذكر: تأرجح، رجفة. الماضى والحاضر والتاريخ والشيخوخة والبراءة والطفولة. والموت الذى أشفى عليه. لكنه لا يصيبه، ليس فى ذلك اليوم، لم يحن الوقت بعد، ولا يلبث الكهل أن يعدو من جديد، بعد أن دعم نظارته مجددًا، وأعاد ضبط عمامته.

كيفما كان، يواصل الرجل الضئيل طريقه، وهو وحده من يعلم إلى أين. للحظة، تولدت لدىّ فكرة أن الحق به لأقول له. لكن ماذا أقول له؟ وكيف؟ هل أقول له إننى وسط أنقاض عظامه البارزة رأيت الحياة تسرى، وتنسمت عطرها؟ هل أخبره أنه هو أيضًا بطل بالتأكيد ، حقيقة، رجل حياته عادية للغاية، وأن هؤلاء الناس وحدهم هم القادرون على أن يكونوا مصدر إلهام للروايات؟ لكنى، وأقر بعجزى، تركته يترنح حتى بلغ طرف الرواق، ونظرت إليه وهو ينعطف.

الفصل الحادى عشر

مضت علىّ قرابة عشرة أيام لم أكتب خلالها شيئاً وبكيت لمدى نضوب قلمى. فى مواجهة الدفتر السميك الذى كنت أطمح إلى ملئه بسرعة نبضات قلبى، لُذتُ بالصمت وابتعدت. كيف يمكن لواقع بمثل هذا الثراء أن يستعصى على التجسيد، فى حين لا تفتأ عيناى النهمتان تختزنان الإحساس ولا تلبث يدى، المتخمة بالمشاريع، تتخيل كل ما ستكتبه عن هذا الوجه، أو هذه الكلمة، أو تلك الابتسامة أو ذلك اللون؟

انقلب كل شىء أول أمس عندما لفَّت سحابة من الغبار جمع البشر. كابول تكابر، تموج بالحركة، تشهق، تحيا: إنها تنهض ببطء من كبوتها. قبل بضعة أشهر، كان المرء يفكر مرتين قبل تبديل زجاج نافذة. الآن تحل المجارف الآلية محل النقالات اليدوية، ويعد الأسمنت للاستعمال بينما تجف قوالب القرميد فى الشمس: بخطى محسوبة تستعاد الثقة ويمكن من جديد نطق كلمة "المستقبل".

أقامت القوة الدولية للمساعدات الأمنية(*) معسكرها بجانب المطار. كان مدخل هذا التجمع العسكرى محاطاً بأخدود من الأحجار القاطعة تفصله بالطول لفافة من الأسلاك الشائكة. كان يتعين التقدم بخطوات حذرة. جنديان يتغلبان على رتابة الزمن بمشاهدة بعض الأفلام الباكستانية. لا جدوى من فرط الصراخ: فالمرقب معزول الصوت. كى يتسنى الاتصال بهؤلاء الجنود الذين أرهقتهم الحرارة، يجب إدارة مقبض هاتف محفوظ كالكنز داخل صندوق خشبى. بعد الإفصاح عن الهوية، قد يطول الانتظار لساعات حتى يأتى صاحب رتبة ليرافقنا إلى الموضع الذى ينفذ فيه بصيص حياة إلى الفيلق. حول طاولة لكرة القدم، جلس بعض الفتية فى ثياب العمل يحتسون أقداحًا من البيرة ـ مسموح بقدحين منها للشخص الواحد كل مساء ـ، والبعض يجرى مكالمات هاتفية من مركز غير معزول بشىء، وآخرون ينفقون كل راتبهم على شراء بعض شراب الفراولة وقوالب الشوكولا وكريم لليدين ومناديل ورقية.

غدًا يتم تغيير قيادة قوة (إيساف) التى فقدت للتو خمسة رجال راحوا ضحية اعتداء. تدهورت الأوضاع الأمنية، وبلغ الاستنفار أقصى مستوياته. لن يُسمح لنا بالدخول إلى المعسكر إلا بعد تفتيش تنبأنا أنه سيطول. طويل لدرجة التفكير فى العودة.

سرنا ببطء فى اتجاه وسط المدينة عبر شارع تختلط فيه الرمال بالباعة بالأطفال بثيابهم الملونة

(*) إيساف ISAf.

بالعباءات المتطايرة فى الهواء. لا أدرى أى انخساف أو أية ضربة مكبح أو أى متجر مر بأقصى سرعة قد اضطرب له قلبى. اجتاح إحساس ممزوج بالسعادة وبالشك نفسى على وقع صوت. عجزت عن مقاومة دموع لم أدر إن كانت نابعة من فرط الفرحة أو الحنين أو ربما من شدة الهوان. هذا النوع من البكاء يغنى عن النحيب أو العويل: تتدفق الدموع، لا تكاد تلحظها سوى العين المتنبهة لشخص، إن لم ينخرط فى البكاء، يتمنى ذلك بشدة. لقد رأى بياض عينيك يتألق. ترك للشك شيئاً من القذى، ثم لم يملك أن يدرأ عن نفسه الشعور بالذنب، واكتفى أخيرًا بملامسة يدك. ناتان بجوارى، وأنا أجوب الجدران المتشققة للبلد الذى طالما حلمنا بأن نعيش فيه اليوم حياتنا. خارت مع الريح قوى العجائز بينما تبدت هشاشة الرجال. فجأة انبعثت رائحة خبز ساخن من داخل بيت مضاء بمصباح زيتى، وتبددت الكآبة.

ليس معتادًا أن يخاطر غربيون بأنفسهم فى تلك الأحياء التى لا يتورع فيها الأشرار عن تدبير أعمال إجرامية. خلف وجوه لصوص وإرهابيين، رصدت شراسة ووقاحة. كان الأطفال يتدافعون من الأزقة: فتيات بهيئة رفيعة بأوشحة قذرة، صبية تعلو أنفهم خدوش نتيجة السقوط، عيون محددة بالكحل. أرخى الليل سدوله على شاحنات تتعالى أصوات السلاسل المربوطة بهياكلها. كانت تلك الوحوش الحديدية تئن تحت جبال من أجولة الدقيق، يلفها لون رمادى داكن

يخترقه القمر بالكاد، والبدر فى منتصف تمامه غطت سحب الغبار النجوم، وظهرت فى الأفق بضع طيارات ورقية تكاد تلامسها.

بدت أطياف الرجال مبهمة كالأشباح. علت وجوههم أمارات الضيق كمن يتعلل بتقطيبة جبين بأنه ليس لديه ما يرويه من طرائف: "المسجد؟ لا تذهبوا إلى هناك، إنه خطر!" ما زال الشيوخ يرتعدون لذكر تواتر الطلقات.

على جانبى الشارع الذى تنوء فيه العربات بحمولة خمسة وثلاثين طناً، ظلت بضعة منازل طينية قائمة. استطاع المسجد الخشبى، الذى دُمِّر تمامًا، أن يحتفظ برونقه. ما زال هناك أثر لقاعة الصلاة، والدور المسروق المخصص للوضوء، والحجر البيضوى الشكل الذى يقف أمامه الإمام ثابتًا فى مواجهة المصلين، متجهًا إلى الكعبة. ومن السقف المتصدع تنبعث زقزقة عصافير لا تبالى بصخب الحكايات.

انفجرت القنبلة فى قلب كابول، عند تقاطع الأنصارى: ضاحية عادية، ليست جميلة ولا قبيحة، وتشوبها القذارة. منعطف حياة، حقل من البشر. سيارة أجرة بلا علامات مميزة، صفراء اللون ومركونة بالعرض. كان الناس يتبضعون عند الباعة الذين ينادون على الشاى، وقد ثقلت رءوسهم بتأثير التبغ أطاح الانفجار بزجاج النوافذ إلى مسافة خمسمائة متر. تصاعدت سحابة سوداء، غطت التلال. ظلت الذبذبات ترفع أوراقًا مشحمة، ولم يجرؤ أحد على

التحرى عن مصير الطفل الممسك بطرف الخيط المنقطع لطيارة ورقية. نهاية عصر يوم كان مشرقاً. شارع القصابين، حيث اختلطت رائحة الذبائح بنكهات التوابل. كانت المتاجر تتعاقب أحدها تلو الآخر حيث تكدست أكوام من المنتجات المتماثلة. شقيقان كانا يشغلان حانوتًا هناك، وتمنيت أن يكون أثرهما لا يزال موجودًا. كان وجه أحدهما ضامرًا أسفل طاقية إسلامية صغيرة، بينما بدا وجه الآخر ممتلئاً تحت العمامة الرمادية الضخمة.

فى أعقاب هجوم، يُحسَب حساب الخطر فتتباطأ كل حركة من حركاتنا خشية أن تؤدى فلتة، أو يد رُفعت أسرع من اللازم أو خطوة خاطئة إلى وضعنا وجهاً لوجه أمام الموت الذى حصد حياة آخرين. عدت إلى بيتى ببطء، تعترينى برودة. خبا صخب المدينة. هل نجا ناتان من القنبلة؟ نظرت فى اتجاه واحد كأنى انتزع الحظ.

كان شاهارا أكثر من مجرد صديق. كان شقيقى الأفغانى الذى يتحدث قليلاً، ويحس بكل شىء، ولا يتركنى إلا بعد أن يطمئن تمامًا أنى بأمان. ضغط يدىّ عدة مرات بين يديه ليتأكد من تدفق الدم بهما، ثم أعادنى داخل السيارة.

تولى شاهارا مهمة الحراسة واختيار الطريق. ادركت حيله. فى الطريق إلى البيت، صادفنا سيارة تقودها امرأة، انسدل وشاحها على كتفيها. مددت إصبعًا ألجمته الدهشة وبادر شاهارا إلى توضيح

الأمر: "إنها أفغانية!" وأضاف، كأنه أراد أن يزيل عنى الشك، أن أفغانستان كانت مكانًا سعيدًا وآمنًا، قبل ثلاثين عاماً. واصل شاهارا حديثه دون أن يعبأ بأنى لست مستعدة اليوم لسماع هذا الكلام. كان ذلك بالأمس فقط : فى ظل نظام طالبان. اتُّهِم ذلك الرجل الوديع، الذى لا يتسم بالشراسة بأى حال، بأنه من أنصار أحمد شاه مسعود. ولحمله على الاعتراف، كانوا يعذبونه يوميًا بكهربة أوصاله المتيبسة. تعذَّب قلبه من جراء ذلك، حيث كانت نبضاته تتسارع وتتباطأ فجأة، أحياناً، ليس بصفة يومية، لكن يومًا واحداً يكفى.

أوقف شاهارا السيارة أمام بوابتى الزرقاء. أحاط معصمى بكفه المصبوغ بالحناء دلالةً على أنه قد خطب مؤخرًا. بأنامله الرقيقة، مسح عن جبهتى التجاعيد التى كانت لا تزال شابة، لكنها تجاعيد رغم كل شىء يمكننى أن أنام هادئة، هذه الليلة، بلا قلق! وكان على حق: فالقنبلة بانفجارها قد أزاحت الخطر إلى أجل غير مسمى. وابتسم شاهارا.

تبدد صوت الأذان فى الليل، فلم يكد ينطلق حتى انتزعه الهواء وحمله بعيدًا عن البشر. أرخى الليل سدوله مرة أخرى دون أن أتنبه لذلك. أى جنى شرير أتى ليجردنى من درعى الأخير؟ كان كل شىء يرتجف، كل شىء يرتعد فى الظلام. استبدت بى الرغبة فى البناء الذهنى فتتابعت كومضات صور حياة حُرِّم علىّ عيشها: استدارة بطن الحامل، يد على خصرى، بلا

مسد ولا وجه، بيت بحوائط بيضاء، مسكونة. ثم اصغيت إلى الهواء وهو يحملنى على الصمت.

منذ انفجار القنبلة، لم يعد وسعى أن أرى سوى امتلاء بشر وعربات تجرها جياد مغطاة بأشرطة لاصقة تشابكت فيها الأعلام الأفغانية والأمريكية. ساق بُترت ولا يعرف صاحبها من المسئول، تعجز عن رؤية تلك الأعلام لأنها فى ظهرك. رأيت أنقاضًا ونُذُر معارك مؤجلة. رأيت ما تجنب ناتان أن يقوله لى، عندما كان يدخل إلى مكان ويفكر كل مرة فى الهجوم المحتمل.

فى الكلية، اختار أحد طلبتى تحديدًا ذلك اليوم ليعرض علىّ تاريخ بلده. أحببت هذا الصوت الذى لا تتغير مقاماته وينطق به الأفغان فى أكثر الأحيان عندما يعبِّرون عن أنفسهم بالفرنسية. لكن روايته كانت مضنية تمامًا، وانهمر المطر مدرارًا عصر ذلك اليوم، حتى بدت لى تلك النبرة الرتيبة ترجمة دقيقة لمعاناته، أو ربما لمعاناتى.

شعور خفيف بالكآبة، كصفحة مياه تَكَدَّر صفوها قليلاً، عرف اليوم عنوانى واقتفى أثرى وأدرك طريق قلبى. هذا المساء، عجز الغبار عن أن يحجب تمامًا الطيارات الورقية التى تعلقت بفروع الأشجار. ما زال الأطفال، الأصغر من المألوف، يضحكون بصفاء، وهو ما يبعث على الاطمئنان إلى حد ما.

لبثت أحاول إعادة تجميع تلك السعادة التى أعرفها والتى رأيت منبعها لدى آخرين أكبر سناً. كان

يكفى أن تعود أمى، أن تضع على مائدة المطبخ بعض الفواكه الناضجة، فينبض كل شىء بالحياة. منذ نهاية النهار الذى اعترتنى فيه تلك الحالة، فيما لم أتبينه ولا عرفت كيف أسميه، ظللت أنتظر تلك اللحظة التى تعيد فيها أمى شد خيوط السعادة. ثم لحظة يضع فيها والدى، إذا كان معتدل المزاج، أسطوانة لموسيقا الجاز، ويعد لنفسه كأسًا. ويبعث الشراب الذهبى الدفء فى أوصالى وكأنى قد احتسيته. من ذلك الشعور بالحنين، أدرك وأشعر أن شيئًا ما سينبعث إلى الوجود.

الفصل الثانى عشر

إن مكمن الصعوبة، فى أفغانستان ربما أكثر من أى مكان آخر، هو أنه خلال برهة خاطفة تفتح فيها عينيك لوهلة يتلقى قلبك مادة تكفى لكتابة عشرة مجلدات. كم حياة تلزمنى لإفراغ كل هذه الكلمات المتدافعة؟ وما العمل فى اللحظة التى أدرك خلالها أنه لن يقدَّر لى الحياة إلا لمرة واحدة؟ لتدارك هذا النقص، أحرص على ألا أصرف اهتمامى بالعالم إلا بعد أن أتأكد تمامًا من أنه لن يحدث شىء جوهرى خلال الدقيقة التى أغفو فيها. لكن شيئاً ما يحدث هنا دائماً. ضوء مبهر، وجه يموج بالأسئلة، لون لم أفترض حتى وجوده، صوت يجعلنى أرهف السمع، وكثير من مشاهد الحياة، كتلك الشاحنة، بالأمس فقط، التى كانت تحمل على سقفها هيكلاً أزرق وطفلين متدثرين بغطاء أحمر.

من المزعج أن يُضطر الإنسان إلى الرضوخ لحكم الواقع: فثمة عناصر كثيرة لا تفتأ تفلت منى

بالضرورة! تفتر الكلمات مع اقتراب الليل، وتقلقنى إمكانية الاحتفاظ ولو بعبرة واحدة من هذه الحياة. هذا المساء، انتابنى إرهاق شديد، كما لو كان لتخفيف معاناتى، هامساً إلىّ بأن من حقى أن أخلد إلى النوم: فقد ظللت متيقظة طوال اليوم. إن المسافر يسير ويرصد: ينحصر كل نشاطه فى أن يرهف حواسه ليختزن بها صورًا للعالم. ربما لم أدرك بعد أنى لم أعد أنتمى إلى هذه الطائفة من المتسكعين. أنا هنا لأعيش، مقيمة، فى حالة دأب مستمر. لكن ليس من السهل التحرر من هذا الانطباع المرتبط بالذهن عن الطريق: السهاد الدائم. هكذا، فى كل مكان، كل لحظة، فى المسافة من كلية إلى أخرى حيث ألقى محاضرة، شاهرةً قلمى كالسيف، أكتب على عجل، أرسم بسرعة ما يتراءى لى من صور.عندما أقف فى مواجهة طلبتى، يسترعى صوت خافت انتباهى إلى كلمة أو تفاصيل يتعين تدوينها بشكل ما. وفى كل مساء، عندما يسود الظلام، ألاحق الكلمات. فى غضون ذلك، قد يسهو المرء عن التنفس، فهو يغوص فى داخله، فى أعمق أعماق ذاته، ويفجِّر مكنون نفسه خارجها فى آنٍ واحد. فى بعض الأيام، تشعر وكأنك حفارة مجنونة لم تعد تدرى ما يجب اختراقه: السماء أم الأرض. عناء لا نملك سوى الاستسلام له! تشرع فى الحلم بذراعين تتوقان إلى الحب بدرجة تنتزعك من فكرة الكتابة.

وجدت فى كابول نسخة رديئة من دليل فودور الحديث عن أفغانستان الذى طُبِع فى بلجيكا

عام ١٩٦٩(*) كان هذا الدليل لا يزال يتهجى اسم العاصمة بادئاً بحرف C ويعدد شتى "عشائر" البلد. في الصفحة الثالثة والثلاثين من الدليل، يرد إعلان يعدد مزايا شركة أريانا للخطوط الجوية الأفغانية: كلمة أفغانستان تعنى البلد المضياف. أما كلمة أريانا فهى الطريقة المثلى للذهاب إليه." أحببت تلك النبرة المبهجة، ذلك الأسلوب العتيق الذى تطغى عليه اليوم الصيغة العملية لأدلة السفر. كان فودور ما زال يتحدث عن "الطريق الأسفلتى الممهد، بامتداد ١٨٠ كم، الذى يربط كابول بجلال أباد"، بينما ما أزال أشعر بين ضلوعى بصدمات وعورة الدرب.

الطريق المؤدى إلى ممر خيبر؟ أسطورة، مكان للروايات والحكايات، لا يخطر على البال! اليوم، بينما يتأهب الأفغان لاستقبال شهر رمضان، ابتلعَنا الدرب المفضى إلى نانجارهار فى غمار شعابه المسبّبة للدوار وشراكه وغباره الذهبى. بعد بضعة كيلومترات، يتناقص الارتفاع حتى يتلاقى المرء وجهًا لوجه مع أشجار النخيل والجمال الوحيدة السنام، وتفاجئ عذوبة الهواء سكان كابول المعتادين على جو الشتاء. حقًا إن الطريق كله ساحر عبر إقليم لاغمان، لكن الكيلومترات الأخيرة قبل جلال أباد هى التى تأسر القلب بالأخص. محا الضباب المنبعث من العجلات كل طيف حتى أنه، فى ضوء النهار، كانت المركبات المنطلقة تكاد لا ترى رغم أن مصابيحها مضيئة

(*) Guide moderne Fodor de l'Afghanistan

بالكامل. فى مؤخرة الشاحنات المكشوفة، يجلس رجال لا يُعرَف أبدًا انتماؤهم ولا وجهتهم وهم يحملون السلاح. يصوبون فوهة بنادقهم المشحونة، و بين ساقيهم مدافع مضادة للدبابات.

عندنا، الشاحنة لا تعنى شيئاً آخر غير شاحنة: أداة عمل، حاوية عملية تكدَّس فيها أطنان. لكنها هنا، كادت تتحول إلى كائن بشرى. تزيَّن الشاحنة كشجرة عيد الميلاد، هذه جُهِّزت قبل أن تمضى فى طريقها، وتلك زُيِّنت بزخارف باروكية، وأخرى كُشِطت لتزداد لمعانًا ونُقِشت حافة بواباتها الخشبية بطرف خناجر دقيقة.ويتمتع المرافقون المكلفون بتجهيز تلك العربات القديمة برهافة الحس . رهافة محسوبة: فى موقع وسط بين الاعتدال والإفراط. فالوداعة هنا، قد يقابلها الموت غدًا. لكنها رهافة رغم كل شىء، إحساس بالجمال ربما تُرجِم إلى رسوم شاليهات سويسرية على جانبى مركبات منبعجة.

متكدسةً فى قاع نهر جاف، تنتظر تلك الوحوش الفارغةً فتح الحدود الباكستانية. وعلى الجانب الآخر للحاجز، تنتظر أخرى فى صبر أيضًا، محملةً حتى السماء بالبضائع. فى أفغانستان، حتى يومنا هذا، لا شىء يصنَّع، بل يُستورَد كل شىء. تحرص الأقاليم الغنية حيث تُزرَع الفواكه والخضراوات على عدم إعادة توزيع تلك الهبات الطبيعية التى لا تقدَّر قيمتها بثمن. ذهابًا وإيابًا باتجاه بيشاور وكراتشى ولاهور أو

قدومًا منها... والجميع يعبرون حتماً مدينة جلال أباد، حيث يأتى الليل قبل موعده كثيرًا بفعل سحابة من التلوث. نفق صغير جدًا شُقَّ فى عام ١٩٦٣ هكذا لشير لوحة صغيرة -يشكل مضيقًا خانقًا يناسب عمليات المراقبة، حيث جنود الشرطة لا يراقبون شيئاً على الإطلاق بل يستمتعون بالابتسام وقد انفرجت اساريرهم للمسافرين القليلين. بحركة سريعة، تُرفَع بندقية الكلاشينكوف، وقد صُوِّبت فوهتها إلى السماء. ثم يعود كلٌّ لإتمام مباراة البلياردو التى يلعبها فى الهواء الطلق.

جلال أباد ليست مدينة جميلة، لكنها تنبض بدماء تمتزج فيها كلٌّ من أفغانستان وباكستان والهند. رطوبة الهواء وأشجار النخيل المشعثة مع المركبات الثلاثية العجلات(*) تولد شعورًا بالنشوة العذبة: يكاد المرء يظن أنه قد اجتاز الحدود مع الهند. الخط الذى يسقط بعده الوشاح قريب جدًا! وكذلك المنطقة المحايدة الضيقة حيث الوجوه السافرة لا تصبح صادمة! لكن هنا يُلبِس دائمًا الخمار الأزرق واليدان وحدهما تنبئان بالعمر التقريبى لصاحبتهما.

لحظة، وراودنا الأمل أن يستقبلنا الدكتور ناصر فى بيته، وسط أسرته. أشجار النخيل شىء، وحرارة الجو... الحرية شىء آخر. كان اللون السائد، هذا المساء، هو البيج الفاتح. وضع ناتان فى عروة سترته

(*) مركبة ثلاثية العجلات، مجهزة بهيكل، يُصنَع الجزء الأمامى منها على هيئة دراجة نارية خفيفة أو صغيرة.

وردة حمراء كان قد قطفها لتوه. قال إنه سيعترف غدًا بكل شيء. قال إنه سيمكننا الزواج غدًا.

استقبلَنا ناصر فى بيته بحيوية مفرطة. بعناق قوى، رفع ناتان من الأرض فكاد يخلع إحدى كتفيه من شدة تعبيره عن فرحته. تنبّه لوجودى فحيّانى بتحفظ. من بين أفراد الأسرة، لم ألحظ على مدى يومين سوى بنات الأخ الفاتنات منهمكات فى العمل داخل فناء شُقِّت فى آخره فتحة. فى محيط رائع من الدجاج والأطفال والأشجار، تفرغت الحريم لأداء مهامهن اليومية. وعندما كان ناتان يتمشى هناك، يتم بحرص تفريق الفتيات. كن يرشدننى إلى الطريق ويحملن شمعة لإنارته لى ويجلبن لى الماء لغسل وجهى. كنا نتبادل ثلاث كلمات، وابتسامات مندهشة، يعترى ابتساماتى ضيق لكونى مجرد ضيف عابر فى هذا الفناء الذى يعشن حياتهن داخله. غدًا سأرحل. أردن استبقائى لبعض الوقت، استضافتى عندهن، حتى لو كان ذلك هناك، فى تلك الحجرة المنزوية حيث كنت أنام وأتناول طعامى. حتى دون أن يرينى أبدًا، أو مجرد مرة يوميًا لصبّ هذا الماء على يدىّ. سيعرفن أنى على الجانب الآخر للجدار، ويكفى ذلك تمامًا.

اعتذر ناصر لغياب زوجته: ستتأثر جودة الطعام بالضرورة. قُدِّمت لنا كميات وافرة من اللحوم والخضر والبيض والفاكهة والأرز الأبيض. كانت ثمار الرمان الضخمة تسكب عصيرها فوق الصوانى الحديدية وقطع الشمام تذوب فى الفم. تَحدثنا بلغة

الدارى الفارسية بدائية (*) كالإنجليزية التى يتكلمها ناصر. استُدعى ابن أخيه ليزداد الجمع ضخامة: كان الشاب يدرس الإنجليزية تحديدًا ويرهف سمعه مصغيًا لكل تلك العبارات التى لم يكن يميز معناها إلا فيما ندر. علا وقع الابتسامات على صوت الطعام، وضيفنا يعبِّر عن قناعته بالمضغ ببطء. أمسك ناصر بإبريق الشاى، رافعًا قامته الضخمة برشاقة، ثم صبَّ الشاى الأسود المعطر بخفة. وخلال فترة سادها الصمت لهضم الطعام، أخذ ناصر يضغط بشدة على يد ابن أخيه، وصدره يهتز بضحكات مجلجلة. كان وهو مستلقٍ على حصيرته حريصًا للغاية على الحفاظ على توازن قدمه اليمنى الممتلئة فوق حافة قدمه اليسرى. بدا فى هذا الوضع كالأمراء، مدهشًا ببساطته الريفية.

تعبيرًا عن شكرنا لناصر، اشترينا ديكًا روميًا من السوق، تحت وابل من نظرات عيون ذاهلة. أهدانا بدوره كرة ضخمة من القنب الهندى اخترقت رائحتها ثلاثة مغلفات بلاستيكية. بيده الخبيرة، أجرى المعالجة الكيميائية. فإذا بما كان يشبه تربة هشة يكتسب مع مزجه بالماء قوامًا صلبًا. وبعد تسخينها فوق شرارة موقد غاز، تحولت العجينة إلى قطعة حشيش عطرية جاهزة للاستعمال.

الطريق إلى ممر خيبر؟ بالطبع كان ناصر يدرك تمامًا معنى ذلك... لكن ما غايتنا من الذهاب إلى

(*) dari اللغة الفارسية الدارجة فى أفغانستان.

هناك حيث تصطف الشاحنات بصبر خلف حدود مغلقة؟ أخذ يعدد عندئذٍ كل الأماكن فى نانجارهار حيث يوجد ألف سبب آخر للذهاب إلى هناك بدلاً من سفح ممر خيبر. لنعترف أنه محق فى رأيه: فليس ثمة ما يستحق المشاهدة فى تورخام. لكن هناك كل ما يمكن تخيله: إنه مكان تتجسد فيه قراءات الكتب كأنها على منصة عرض. ولم أكن أتطلع لأكثر من ذلك.

ألقى ناصر فى فمه بحفنات من اللوز المغلف بالسكر، رافعاً حاجبيه نحو ابن أخيه المتعسر فى الترجمة. فليكن، ما دمنا متشبثين برأينا هكذا كما يبدو... تنهد ناصر وبيَّنَ لنا الطريق الذى يتعين علينا أن نسلكه، ولم ينس أن يستحلفنا أن نخفى فى قاع حقيبتنا كرة القنب الهندى. ثم ارتمى على حصيرته، مغشياً عليه من التعب.

لم يكن هناك فعلاً شىء يُذكَر عند سفح ممر خيبر، لكن يكفى ذلك وحسب فهنا تقع حدود: أحد تلك الأماكن النادرة التى يمكن للمرء فيها أن يدرك الأبعاد المعقدة لشكل العالم. يمتزج فيه الانبهار بمسحة من الترابط المنطقى. هذه الأرض الباكستانية رأيتها مرتين فى الواقع. أولاً الجانب الهندى فى أمريستار، ظل على حاله لسنوات، واليوم الجانب الأفغانى فى ممر خيبر. تحول الأمر إلى فكرة متسلطة. حشد من الرجال والنساء والأطفال ينتظرون فتح الحدود وسط الروائح الكريهة المنبعثة من دهن الخراف.

تورخام، آخر قرية أفغانية قبل باكستان، تُختزَل فى شارع يموج بحيوية تفوق مائة شارع آخر معاً. أرغفة الخبز الساخن تدور بين يدى خبازين كساهم سواد الدخان، وأباريق الشاى المرقطة الصغيرة المصنوعة من الحديد تكتسب تحت أشعة الشمس المتوجهة ألوان الزمرد. بعض جنود الشرطة يفرقون بالهراوات التجمهر الصاخب الذى سرعان ما تشكلَّ ثانيةً حولنا. أجانب فى ممر خيبر، لم يشاهَد أىٌّ منهم منذ زمن طويل. فرضت المنظمات الدولية على العاملين بها شتى الإجراءات الأمنية التعسفية وحرَّمت عليهم أدنى تحرك.

داخل المقهى الذى جلسنا نحتسى فيه الشاى الأسود فوق أرائك مجدولة، ظهر الحاج أباظة فجأة، بضحكة تعكس مقاومة لا تتزعزع لمصائب الحياة. قُتِلت ابنته ذات الخمسة والعشرين ربيعًا على يد عناصر طالبان. الخمار "ليس جيداً، يا سيدتى كل شىء سيئ!" نطقها كلها بألمانية تداخلت فيها ببشاشة لهجات الباشتو والأوردو والدارى والبنجابى. بإصبع هزيل، وكز الحاج أباظة ضلوعى على سبيل المداعبة، كإيقاع مصاحب لفصاحة عباراته: الحياة، كل ذلك، الحياة، بيسرها وعسرها! كان فى الخامسة والستين من العمر ويبدو وكأنه قد بلغ المائة، يستفسر من الدكتور ناتان عن وسيلة تستعين بها زوجته لمنع الحمل، بينما تترنح سِنّة وحيدة صفراء طويلة كالبنصر فى جوف ابتسامة يلين لها الحجر.

لم آت إلى ممر خيبر لاجتياز الحدود، بل لمجرد أن أرى عن قرب ما قرأته فى نسخة من كتاب. كانت الجمارك مغرية بالتأكيد، لكن هدية ناصر قلما كانت حافزًا على المغامرة: أظن أن جنود الشرطة تنتابهم من وقت لآخر نوبات حماس مفرط، ولديهم سجون لا تزال شاغرة. كان يتعين أن نعود على أعقابنا ونسلك طريق جلال أباد لنصل إلى كابول قبل حلول الليل.

مقاعد بلاستيكية ممتدة على شاطئ قناة السد الواقع على سفح الجبال عند مخرج المدينة. رجال يقفون أمام حوض كبير من الزيت يقومون بقلى بعض الأسماك. ينساب زورقان ملونان صغيران وهما يرسمان خطوطاً ناعمة على صفحة المياه. موسيقا هندية تنبعث من مكبرات صوت زاعقة. رجل بدين كالدب يحمل هراوة، يتنقل بين طبق سمك مقلى وضعه أمامه ودفتر للتذاكر: عشرون أفغانيًا كل ربع ساعة فى مركب. يتدافع الأطفال والشيوخ نحو هياكل الخشب المدهون، متحمسين فى سعادة. ومضات تلتقط أطيافًا خافتة لا تعكس شيئًا من صورة ذلك الواقع المتألق. لا يهم: سوف تظل فى أعماق القلب ذكرى أمسية سعيدة ستحتل صورتها مكان الصدارة فى الشتاء، أمام نار المدفأة.

الفصل الثالث عشر

يندهش المرء كيف يمكنه، بحسن نية، أن يرفض الاعتراف بالواقع: على هذه الأرض المتداعية، فى هذا البلد المنهار، أمضيت ثمانية أشهر وأنا مقتنعة بأنى قد حققت الحلم المنشود على أرض الواقع. لكنه تسرب بعيدًا. الحياة، للأسف، هى سلسلة متتابعة لنوبات موت أصغر نُبعَث منها دائمًا. تجتمع حلقات السلسلة لتصوغ ماضينا: خبرات أكيدة علينا أن نتعلم منها شيئًا. لكن ذاكرتى أخف من ريشة: فأنا أمضى فى الحياة مانحةً ثقة لا تتناسب مع عناصر بشرية هى الأكثر تقلباً.

منذ ثلاثة أسابيع، فى يوم انتابنى خلاله الشك فى كل شىء، قررت الأرض أن تهتز. كنت آنذاك أحلم بجسد ناتان ممدَّدًا بجانبى. لم أعد حتى قادرة على ان أتنسمه. كل من أحبوا يومًا يعرفون ما أتحدث عنه. أشياء كثيرة تتشابه فى الرعشة التى تنتابنا والدموع التى تعقبها. وزلزلت الأرض زلزالها. لن

أفيض فى وصف مثير لظاهرة جيولوجية عادية إجمالاً .لا سيما وأن سهادى فى تلك الليلة لم يكن نابعًا من الشعور بأن العالم ينهار، بل من ثقل جسده فوقى، من رائحته النفاذة وعذاب قرب شفتيه. ماذا كان يفعل؟ حماية لصيقة، مقاومة ضارية إزاء الجدران الأربعة المتداعية، والتراب المنهار من السقف، و لتر الماء الذى أحتفظ به وكأنى أحتاجه للوضوء، وعلبة السجائر المترنحة على حافة منضدة السرير. أما أكثر ما يدعو إلى الدهشة فى كل ذلك، فهو أن الهزة الأرضية، التى انطلقت من الحدود الصينية، كانت قادرة على اجتياز كل هذه المسافة وصولاً إلى كابول وفراشى: الصين، ليسَ ثمة ما هو أبعد من ذلك. لكن الصينيين جيرانى رغم كل شىء. أناس من آخر العالم. والرجل الذى قاسمته هذا الفراش لما يقرب من عام سيصبح غريباً عنى كأى واحد كان من هؤلاء الصينيين. لن يلبث أن يرحل عنى لمصلحتنا جميعًا.

من السهل جدًا أن تمتنع عن الحب. أن تكف إلى الأبد عن النظر والتنفس والسمع. أما الخطط التى رسمناها، وتلك الفكرة لطفل ترتسم صورته بدقة بالغة فى المرآة، كما لو أن وجهًا ثالثًا يمكن أن يولد من وجهينا... فإن ذلك أيضاً سيكون مآله النسيان. كل شىء يجب أن يُنسى. وزلزلت الأرض زلزالها.

بات كبريائى على المحك. بادرت إلى دفع ناتان من قدمه، من رقبته، من ساعديه، من مرفقيه: من كل ما وجدته بارزًا. لم أفكر أنه يمكن أن يتمادى فى

مهمة حمايتى إلى أبعد الحدود. لم يكن حتى إعصار بقادر على تحريكه. الموت فى بيتى! تسحقه ذات العارضة التى كان مقدَّرًا أن تصيبنى! هو ذاك! هكذا الرجال. حين تنتظر منهم أقل شىء، يهرولون وهم على أتم استعداد للموت من أجلك. ولا يهم أن ناتان كان فقط ينتظر اللحظة المناسبة ليخبرنى بأنه سيتركنى.

خاب ظنى. لم تستمر الهزة سوى دقيقة. كان يأمل أن يبدأ ذلك من جديد، لكن هذا لم يحدث. وعاودت النوم قبل انتهاء الزلزال، دون كلمة شكر واحدة. هكذا النساء. لا تشغلهن معرفة مدى قدراتك الحقيقية قدر اهتمامهن بتصديق ما تقوله لهن. لا شىء يعنيهن سوى أن تبرهن لهن على حبك. لكننى لم أنخدع بهذا الدوى الليلى الذى كان يخفى وراءه كثيرًا من الصمت وترقب وصول الزوجة.

لعل أفغانستان قد رأت ما يكفى لكى لا تبكى عليك. هى: شمس مشرقة كل صباح، وفيض من الأضواء، وسماء حادة الزرقة. كل يوم، توقظها هذه الشمس الساطعة. هكذا باتت لحظة الاستيقاظ أصعب اختبار أجتازه، حين يتناقض الجمال بشدة مع وحدة فراش أشغله وحدى ولا يبعث الدفء فى أوصالى . كنت حتى وقت قريب جدًا أبقى جفونى مغلقة وأبحث عن رائحته فى تجويف كتفه. كان ذلك بالأمس فقط.

ما لبثت الحرارة أن ارتفعت: كان المكوث فى وضح الشمس يصيب بالدوار حتمًا. فنجان من القهوة

الخفيفة أمام نباتاتى من الطماطم وتلك، المحترقة قليلاً، من الكوسا غير المثبَّتة بدعامات فى الأرض عزمت أمرى، سأواصل الانتظار.

ما خشيته فوق كل شىء، أكثر حتى من الانفصال، كان مقدَّراً فى الغد. لم يكن ناتان بحاجة إلى إتمام عبارته. نبَّهنى إلى أنه لا ينوى الغدر سيكون علىَّ أن أختفى. بدءًا من الغد. "لوقت محدد كما رأى فى تذكيرى بهذه العبارة ما يواسينى. "لأسبوع فقط!" يستجمع خلاله أخيرًا الشجاعة اللازمة لكشف الحقيقة.

نهضت دون أن أنبس ببنت شفة. رحلت دون أن تبدر منى الحركة التى كان ناتان ينتظرها: أن أربِّت بيدى على شعره بكل الحب العاجز أمام رابطة زواج. كان حضور الزوجة إلى أرضنا هو أكثر ما يسوؤنى. صاغ ناتان كلمة، ثم أحجم عن النطق بها، مدركًا أخيراً أنه قد أفرط فى استعمالها. إن عناق عينيه لى مع تلك المرأة سيكون أشبه بالإساءة. سأستدعى قبلاته ثم أهرب منها بذات الغريزة الفطرية التى تنتزعنا فى آخر ثانية من لُجّة اليم. ابتسمت ابتسامة باهتة، راجيةً أن أكون قد أسأت فهم دعوته للعشاء معه، بصحبة زوجته، ذات مساء خلال الأسبوع. تحجّر قلبى كجلطة دم متجمدة.

أراد ناتان أن يشد على يد شاهارا مُسديًا إليه التوصيات المألوفة، لكنه كان قد أدار ظهره. سأرحل

معه إلى باميان بعد غد. سمعنا سيارته وهى تنطلق بسرعة بالغة.

الطائرة التى ستصل عليها الزوجة فى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة عصفت بأرجاء منزلى بأكمله. ولابد أنها هزت أرجاء منزل ناتان، الواقع على بعد أقل من كيلومتر من هنا. كنا نقطع كل ليلة بالدراجة المسافة بين بيته وبيتى، ندرك تمامًا مدى طيشنا، وننتشى بسعادة تؤججها فكرة الخطر المحدق. كانت أطياف الكلاب التى تجوب الشوارع تتبدى فى الليل. وكنا سكارى بعذوبة الهواء. نحبس أنفاسنا مع اقتراب أية مركبة. كانت السيارة تبطئ سرعتها إذا اقتربت منا. نركز اهتمامنا كما لو كنا نؤدى صلاة دون أن نكف عن تحريك الدواسات، ببطء، كأن انتظام حركاتنا كان كفيلاً بحمايتنا من ضربات القدر. نطلق زفرة طويلة من رئتينا مع اختفاء الأنوار الخلفية للمركبة عند تقاطع الشارع. كان الدم يتدفق فى صدرى المستكين على تجويف ضلوعه ويداى لا تكفان عن مداعبته . لم يكن شىء ليدمر سعادتنا. لقد أصابنا مس من الجنون.

ربما تكون الطائرة قد هبطت الآن. لابد وأن ناتان قد استقل سيارته بخطوات سيره التى أعرفها. لعله قد أدار المحرك بمفتاحه الذى علقت فيه شريطاً صغيرًا أخضر اللون. ربما يكون قد قطَّب جبينه عند مفرق الطريق حيث كنا نشترى يوميًا باقات من

الخضرة. عساه يكون قد نسى أن يخفى مشبكاً من مشابك شعرى، انزلق فى أحد تجاويف الباب.

ظهر اسمه على شاشة هاتفى. تخيلتُه فى الطرف الآخر للمدينة. لابد أن زوجته تنتظر عبور الجمرك، أو التقاط حقائبها من فوق السير المتحرك الذى لا يعمل أبدًا. أو ربما كانت هناك بالفعل، متأبطةً ذراعه، ولعله قد طلب رقمى بزلّة يد. وقد يكون انتحى جانبًا بعيدًا عنها، متعللاً بحاجة عاجلة. لن أعرف أبدًا: فلم أرد. انتزعتُ ابتسامة، وأنا ممزقة الصدر.

ماذا عساه يكون قد اختلق من أعذار ليكون إلى جوارى فى تلك اللحظة، نجوب المدينة معاً. تبعتُه إلى مطعم يديره فلبينيون كانوا يباشرون أعمالاً مرتبطة بعمليات حفظ السلام. كوسوفو وتيمور؛ وبعد كابول سيأتى دور بغداد. لبثت عند الباب، جالسةً على كومة من السلال، غير عابئة بالرائحة النفّاذة المنبعثة منها. كان علىّ أن أحتمى بهذه الساحة الكئيبة أفضل من بقائى بالشارع. الأمر لا يتعلق بالأفغان، بل بالغربيين المولعين برواية الحكايات على الأرصفة، وقلق ناتان من ذلك. من الهاتف اللاسلكى انطلق تساؤل: "متى تعود؟" كان الصوت شديد الوضوح. أجاب ناتان: ساعة، بضع دقائق. لمحته، فشعرت كأن قلبى قد انخلع. أدار محول الهاتف، وحين التقى بناظرىّ خفض عينيه، خجلاً من تعذيبى مرة أخرى. لكنه كان قد ذبحنى بالفعل.

الفصل الرابع عشر

تقف الكلمات عاجزة عن وصف مشاهد من هذا النوع. ففى أوج اللذة، تنطق انتفاضات الرعشة وفيض الدموع بكل ما يستعصى على التعبير تماماً. تتشبث الأصابع الجريحة بمقعد السيارة. نتقدم أنا وشاهارا على إيقاع طلقات بنادق الكلاشينكوف.: هنا تتخذ الأسلحة مكانها فى الأوركسترا. تقع بحيرات باندى أمير المعلقة على مسافة سبعين كيلومترًا من مدينة باميان، وهى مسافة لا تُذكر بالقياس لمساحة البلد، لكنها تستغرق ثلاث ساعات نتمنى أن تطول أكثر فأكثر، فللتجول فى أفغانستان سحر لا يقاوَم. أتوسل إلى الحياة أن تتوقف، وإلى الكون أن يكف لحظة عن الدوران: فنحن لا نعير لجمال الدنيا ما يستحقه من اهتمام.

دون سابق إنذار، ننتقل من أخدود منخفض، لم يخترقه بصيص نور حتى الآن، إلى سهل يتصاعد منه زفير الخيول التى تركض بطول المضمار(*)على ارتفاع

(*) buzkashi لعبة فروسية وطنية يتنازع فيها فريقان على اختطاف جلد كبش مقطوع الرأس.

يناهز ثلاثة آلاف متر، تبدو منحدرات الجبال المترامية كأجساد ضخمة ممتدة، مكسوة بالطمى. مع ازدياد حدة الانحدار، تنساب السيول على جوانبها القاحلة. وتبدو تحت التضاريس الزاهية طبقات شديدة الخضرة.

يؤلمنى أشد الألم أن تختفى هذه البانوراما عند الانعطاف. لكن كل منعطف كان يحجب إحدى هذه اللوحات لتحل أخرى محلها فورًا، فى تتابع مذهل للوحات لا تنقصها درجة لونية واحدة. بهرنى المشهد حتى غدوت لا أكترث بما حولى: حُذِّرتُ من أن أخطو خطوة واحدة خارج اللسان الأرضى الذى نسير عليه. عند أقرب نقطة من الخور، مستندةً بطرف قدمى إلى حجر أحمر اللون، مددتُ نصفى الأعلى وانحنيت بكتفى فوق تلك الهضبة الخلابة التى لا يمكننى أن أطأها بقدمىّ. حافظت على توازنى وكأنى أقف على حافة إفريز سفينة فى عرض البحر. الخضرة هناك أجمل منها فى هذا الجانب، ممتدّة حتى تكاد تلامس سفح الجبال. وقفت أرصد هذا التباين فى الألوان الذى يفوق قدرة البشر. وفى غضون ذلك تمضى الحياة فى حقل الألغام: رجل محنى على حافة شريط مائى، ينظف أسنانه بسبابته بعناية مستعينًا بشظية مرآة .

شيدان: شارع، ميدان. فى الصباح الباكر، تشكل الستائر الحديدية للمتاجر التى لا تزال مغلقة سياجًا وهميًا فى الصحراء. لكن هناك دائمًا شخصًا ما، هنا،

يخلبك فى ثانية: امرأة تظهر من حيث لا ندرى، صبيّة **تركض** نحو مكان لا يعرفه أحد سواها. هذه المرة، **رجل** جاثم فوق حمار هزيل كأنه هرة صغيرة، يضرب **الأرض** بقدميه، ممتلئ الوجه ببشرة سمراء لَوَّحَتها **الشمس**، وهو يعزف على الناى. شرذمة أولاد **يتجاوزونه** حاملين حقائب مدرسية على ظهورهم، **ويجرون** نحو مدرسة مختفية فى آخر العالم.

نتوقف فى منتصف السهل عند مقهى أو بمعنى أدق مطعم كما تشير إلى ذلك لافتة كُتِبَت بخط منمق. فوق مصطبة نُصِبَت فى الشمس، جلس القرفصاء عشرة رجال يرتشفون الشاى بالهال، بينما كانت قطع القشدة المجمدة تذوب فى أفواههم عند ملامسة السائل الساخن. فوق أباريق الشاى، مصباح معلق، يهتز متراقصًا ليعود من حيث أتى. اتخذ صاحب المطعم هيئته استعدادًا لالتقاط صورة له، بوجه ملتهب توالت عليه طيلة حياته لفحات البرد ثم الشمس ثم البرد وهكذا دواليك. أسدل على صدره أهداب عمامته البالية وكأنه يتشح بوشاح حريرى. بدت كذلك. عند النظر إليها من السماء، تتتابع بحيرات باند-إى أمير، وكانت أصلاً فوهات براكين، كأنها ست حبات من الزئبق الأزرق نُظِمَت فى عقد رملى. منسوب الماء لا يتجاوز عشر درجات، لكنه يحمل، بكل درجاته اللونية، لون بحار الجنوب تمامًا: اللون الأزرق الفيروزى حيث تغوص الشواطئ الصخرية عموديًا، ولون حالك السواد لأعماق تشكل زادًا للأساطير.

على الجرف، التف حول شاهارا جمع من النساء والرجال.
الجرف، التف حول شاهارا جمع من النساء والرجال.
والأطفال، ينظرون إلىّ وأنا أغوص بكامل ملابسى
تخلل الماء العذب شعرى فصقله، منسابًا بين جسدى
وملابسى. كان البرد قارصًا، لكنى وقعت أسيرة
للجمال. منذ شهور لم أشعر بجسمى والماء يرفعه
كالريشة. استعدتُ حركات السباحة الفطرية، ثنى
المرفق، رمية اليد، والأصابع ممدودة، مضمومة، ودفعة
الذراع القوية، ترسم بطول الضلوع ثم الفخذ مسار
مارد بحر أسطورى. بوجه مغمور حتى الأهداب،
لامست عيناى ذلك السطح الذى لا تكدر صفو مداده
ريح. مضيت أعد حتى عشرة. وعاودت الصعود إلى
الجرف. عصرتُ أهداب قميصى وأطلقت جماع
شعرى حتى يتخلله الهواء الساخن. امتصت الشمس
آخر قطرات على وجهى. بعث الماء فى جسمى شعورًا
بالبرودة اخترقنى حتى النخاع. دثَّرنى شاهارا بغطاء
من الصوف، لتدفئتى من جهة ولستر جسمى عن
نظرات الفضوليين. كانت بادرته تنم عن رجل حريص
على شرفه، قلِق من أن يخمَّن أحد تقاطيع جسمى
المثيرة بلا ملابس تراعى الآداب الإسلامية. شعرتُ
بألم ممزوج بالحنين: أعادنى الشعور بالمياه الجارية
إلى عهد الطفولة، حيث يحيا الجسد طليقًا.

الفصل الخامس عشر

هذا المساء، أثناء عودتى من باميان، لم أفكر قط فى الزوجة القابعة بين ذراعى ناتان. كأن الرحلة قد ضمدت جراحى. استمتعت بمعجزة انتفاء الألم قرابة يوم. علمت أن الزوجة قد رحلت بأسرع مما كان متوقعاً، لا شك أن خوفها من هذا البلد المتورط فى حرب كان أقل بكثير من ارتياعها لواقع حب عجَز ناتان عن إخفائه كما يجب. صباحًا، وشت به كل نظرة من نظراته. ومساءً، أفلت اسم من بين شفتيه.

ذلك المساء، أثناء عودتى من باميان، فكرت فى مارينا، امرأة شابة راحت ضحية اغتيال مؤخرًا. ألا تقاسى من البرد حقاً؟ اصطفَّت جثث والدتها وشقيقتها ووالدها وشقيقها داخل الكنيسة فى شريط رفيع هش. رقد الأربعة دون حراك. كان كلٌّ منهم ينتظر بمنتهى الألم أن يثوب العالم إلى رشده. لكن قد يتعين الانتظار طويلاً، وربما لا يحدث ذلك أبدًا، أمام هذا النعش الناصع البياض وباقة الزهر المحيطة بصورة المرأة الشابة. كانت ملابسات اختفائها كما

أوردتها الصحف. "فى الساعة الثانية عشرة والنصف عصر يوم الأحد فى سوق جارديز، هاجم رجلان يستقلان دراجة نارية إحدى المركبات التابعة للأمم المتحدة. وأطلق راكبها النار عن كثب."

إن الغموض الذى يكتنف الموت يجعل الميت هو الرابح الأكبر دائمًا. فنحن لا ندرك أبدًا حقيقة المخاطر التى نسببها لأولئك الذين يحبوننا. كانت مارينا تتمنى البقاء فى أفغانستان حتى بعد موتها، لكنها أنهت الجملة التى كانت قد بدأتها قبل عامين فوق هذه الأرض المتشابكة التى عشقت تضاريسها وهواءها وأشعة شمسها. لا شك أن المرأة الشابة كانت تبتسم عندما مزقت الرصاصة أوصالها بإحكام الجرائم المدبَّرة.

قُتِلت. مضى وقت طويل لم يحدث فيه شىء كهذا: ربما تُرِكت بعض القنابل هنا أو هناك، لكن مارينا قد لقيت مصرعها. تكفى مشاعر الحب الأصيلة بذاتها، ولا يهم كثيرًا موضوعها. فى اليوم التالى بعد الجنازة بيوم، وقف محافظ المقاطعة الشاب يشد على أيادٍ بنظرات ملؤها الأسى فى بهو سفارة فرنسا.

فى المدفن الإنجليزى الصغير الممتد عند سفح تل بيبى-مارهو، كانت المقبرة رطبة، لم يوضع عليها شاهد بعد ومغطاة بالورود. بذل الكاهن أقصى جهده: "رحلَت إلى الآخرة فى جنات النعيم." أُغلِقت شوارع كابول فى المسافة الفاصلة بين المدفن وسفارة إيطاليا؛ حيث تقع الكنيسة الوحيدة فى المدينة. بدت البشاشة

على وجوه أفراد القوة الدولية للمساعدات الأمنية: لقد جعلهم هذا الموت أكثر إنسانية. "حذار من شدة الحرارة!" قالها لى أحد العسكريين من فوق دبابته. برز ذقنه من السترة العسكرية السميكة بوجهه الجميل وعينيه المريحتين. فى ذلك النهار الصافى، فى يوم من تلك الأيام الجميلة الجديرة بألا يقهرها الموت، توارى جسد مارينا تحت التراب البارد. فوق صورتها الملونة رأيت ألف وجه يمر، وارتعد ناتان ظنًا منه أنه قد رأى وجهى. يلتئم شمل الأُسَر باللقاء. لا يختار المرء ذويه، لكنه يبكيهم دائمًا. الدم، الذرات، ألوان قزحيات العين، الأشكال المتماثلة، التعبيرات المشتركة، كل ذلك رغم أنه قد تمضى خمس سنوات لا يلمس المرء خلالها ذراع أخ أكبر. شد ناتان على يدى حتى كاد يسحقها. جاء هذا الموت ليداوى جروحًا ويرمم تصدعات. كانت حركة واحدة كافية... فعدتُ أصدق من جديد.

فوق كتل الأحجار نُقشت كتابات شواهد القبور؛ تواريخ وأسماء وأماكن ميلاد: بريتون من سان ـ بيير ـ كيبرون، أولجا روسية، صينى، عسكريون إسبان لقوا مصرعهم فى تحطم طائرة أثناء عودتهم إلى الوطن، ألمان، ثم أطفال كثيرون لم يتجاوز عمرهم يومًا واحدًا. كان يحرس المدفن طفلان صغيران يجذبان طيارتهما الورقية بين القبور، جهل مطبق بمفهوم العدم، وابتسامات تشى بالبراءة.

من قمة تل بيبى ـ مارهو، فى وقت مبكر ذلك الصباح، رأيت صاروخًا يخترق السماء الصافية، نجم

مارق صغير بلا صوت. فى تلك الليلة، هزت قنبلة فندق إنتركونتيننتال، ذلك الفندق الذى لا يعكس سوى ضخامة الاسم والحجم. ناولَنى أحد طلبتى وهو خافض العينين رسالة مكتوبة باللغة الفرنسية: "تعازينا لأمتكم، ولأسرة السيدة مارينا. إننا ندين هذا العمل." شكرته بابتسامة وحوَّلتُ نظرى كى لا يتبدى شعورى المفاجئ بالخوف.

تخلت النساء السافرات خلف العربات عن الحذر فكدت أحقد عليهن. عندما أعاقتنى حركة المرور لدقائق طويلة وسط السوق، فكرتُ فيما يمكن أن يحدث، نتيجة ذبذبة، أو حركة من جمع محتشد. لكن شمسًا مشرقة غطت كابول. رغم كل شىء، كان الهواء صحياً، بارداً، جافًا، وخلال أيام الأعياد التى تبدأ غدًا، سنذهب مع ناتان لرؤية الثلوج الأزلية فى أعلى ممر سالان الجبلى.

الفصل السادس عشر

كان شعر باباشيرى غزيرًا حتى يكاد يتصل بشعر حاجبيه؛ لا يتجاوز السادسة عشرة لكن يديه لم تلبثا أن غطتهما البقع وينقصهما إصبعا السبابة والإبهام. كان بابا شيرى يتحزم بعدة طبقات من السراويل والسترات ليقهر البرد على ارتفاع يتجاوز الثلاثة آلاف متر، متفاخرًا بأنه يدير وحده نفق سالان. كانت العين الثابتة بلا بريق منسجمة تمامًا مع الجسد المتهالك لذلك الغلام اللزج عديم الموهبة الذى بُعِث به إلى هناك على أمل أن يساعد هؤلاء الأربعة آلاف أفغانى برواتبهم الشهرية فى إعالة أشقائهم الأصغر سناً. كانوا كثيرين، مثله، أولئك الذين يقومون بأعمال الترميم تحت الثلج لهذا النفق التاريخى الذى شقه السوفييت فى الستينيات، ممهدين السبيل قبل عشرين عاماً لغزو أفغانستان.

"هل كل شىء على ما يرام؟"، أومأ باباشيرى بالإيجاب برأسه لكن لسان حاله، بعبوس وببضع كلمات تمتم بها، يقول حتى مقابل ما يعادل مائة دولار

أمريكى شهريًا، "اللعنة على سالان!" اعترانا الخجل لأننا جئنا نبدى إعجابنا بما يلعنه آخرون لأنهم أهدروا فيه جانبًا كبيرًا من طفولتهم، فحاولنا أن نعيد للعامل اعتباره. ولو أنك، يا باباشيرى، إذا أتيت غدًا إلى كابول ـ" أين عساها تقع؟"ـ، ستجد سائقين لسيارات أجرة يكدحون ليل نهار مقابل ثلاثين دولارًا كأجر. لكن هذا النوع من الكلمات تعقبه ارتدادة سريعة، ونبتعد بخطوات حثيثة عن ذلك الذى كان محقًا ألف مرة ذلك اليوم فى ألا يصغى لنا. فألم البعض لا يخفف معاناة الآخرين بأى حال.

اختارت حشرة، لها أرجل عنكبوت وجسد بقة، تلك اللحظة تحديدًا لتستحوذ على اهتمام الصبى، الذى سرعان ما تلاشت أطياف ثورته. زحف هذا الحيوان الصغير ببطء فج على طول ساق باباشارى ليعشش فى النهاية داخل حفنة قطن برزت من القماش الممزق، قبل أن تدهسه قدمه الثقيلة.

وقف بعض رجال الشرطة ينظمون المرور فى النفق الجارى ترميمه. عند عالية النهر، كان الطريق الذى يمر شمالاً باتجاه حدود أوزبكستان مغلقًا حتى المساء. ونحو سافلة النهر، أقيم حاجز يسمح كالقطارة بمرور المركبات المتجهة صعودًا إلى مزار الشريف. كان الهواء القارص، إذ يمر على الجسم، يغطيه بسحابة ندى فضى ويضفى على الوجوه لمعان الصدف. شعرت وكأنى فى محيط من العذرية المثيرة وبدأ لون السماء يخدر مشاعرى. سحابة لا تزال

ممزقة الأنسجة، لكنها تزداد كثافةً شيئاً فشيئاً، غشت قمم الجبال، وجلبت تلك اللوحة المعتمة التى كانت تمنى تارةً وطورًا بضع أفكار سوداء معها. كنت بحاجة الدفء، للبشر، ولبعض الشاى.

على الجانب الآخر لنقطة المراقبة، مد أحد المتاجر شباكه، عارضًا على المسافرين كل ما قد يكونون قد حلموا به طوال طريقهم، سواء جاءوا من كابول أو من مزار الشريف. للفريق الأول، بعض المؤن عديمة الجدوى لغرض تسلية الفم: حلوى إيرانية، ملبس فريد المذاق وعلكة بطعم الموز قدم لى البائع حفنة منها: "هدية وللفريق الثانى، قنينات من الشاى الساخن.

أعلى الحانوت، كان هناك سلم يفضى إلى مقهى مغمور فى الظل. عندما يوشك العصر على الانتهاء وتهدد السماء بأن تظل للأبد مطلية باللون الرمادى، لماذا نختلق للحياة تعقيدات أخرى غير التماس الدفء حول مدفأة خشبية مع احتراق الخشب، انتشرت فى الحجرة رائحة قوية كرائحة الغابات فى الشتاء. فى قاعة صغيرة لدرجة أن خمسة عشر زوجًا من العيون تبدو لنا خمسين، شكلت عمائم زرقاء وسوداء ورمادية فوق رءوسنا سقفًا من الدهشة. أخذ صاحب الحانة يلوح بالأكواب وأباريق الشاى وهو يشق الجمع، متذمرًا وفخورًا إلى حد كبير بأنه أكثر الجميع تحضرًا. أجانب لقد رأى بعضهم من قبل. كان رجلاً نحيلاً سريع الخطى، نسى عمره منذ وقت طويل. بعد أن فرَّق هؤلاء الأوغاد، إخوانه وأشباهه، جلس على

مسافة عشرة سنتيمترات أو أكثر منى فبدت لى ثلاثة أرباع قامته التى توحى باللامبالاة. لكنه عاد إلى فضوله بعد نصف دقيقة. تدفق سيل من الكلمات فجأة. تملَّكَنى أحياناً انطباع بأنى أفهم شيئاً منها، كلمة أعرفها، صوت سبق أن سمعته، وجه أسبر أغواره، زمن أتبيَّنه.

سرعان ما شكَّل الخمسة عشر رجلاً الذين سبق طردهم حلقة استُبعِد منها العجوز. كانت عيونهم تلمع بسحر أخّاذ. اختفت أياديهم السمراء تحت الأغطية الصوفية. كانت رائحتهم نفاذة، وشعرهم أشعث، ولم أجرؤ على تخيل أن تلك الأيادى قد داعبت ظهر امرأة مرة واحدة. كان ينساب من حدقاتهم وميض مثير للقلق. حركتُ عبثًا يدى فى الهواء، لكنهم أبوا أن يفهموا حركاتى التى تعنى: "عدت من سالانج، إنه مكان جميل جدًا وبارد للغاية! نعم، هذا زوجى طبعاً!" - رغم أنه كان زوج امرأة أخرى أكثر من أى وقت مضى. كرهتُ ناتان فيما كان يمكننى أن أحبه فى ظروف أخرى.

رفعتُ عينى عن سيجارتى الجافة كالخشب الميت، وقد أقلقنى الصمت الذى ساد المكان. صَفَق باب، فانحسر الضوء بشدة، وتغير شىء ما. مع انحدار الشمس، ضيَّق الرجال حلقتهم وبات لون وجوههم داكنًا. تبادلنا مع أكثرهم هدوءًا نظرات حدَّسنا منها احتمال وقوع حماقة ما. كان علىّ أن أهرب، وإلا سأبقى مكانى. انفتحت الدائرة مرة

الهيرة. مع تقدمى ببطء، لامستُ كتفيه، ومررتُ تحت ذقنه، وداعب نفَسه قمة جبهتى حتى إن انحناءة بسيطة كانت كفيلة برفع شفتىّ إلى مستوى شفتيه. وضعت يدى على قلبى، وحييتُه قائلةً " ـ إلى اللقاء(*) واسرعت بالخروج.

حاجز يسبق مدخل جبل سراى حيث أقام الداهية «قسمة الله» منشآته: يحتل مطعم خراسان أعلى تلك الضيعة الصغيرة المؤلفة من شارعين يقع بأحدهما سوق التوابل، وبالآخر سوق الأقمشة. بعد المقهى الذى توقفنا فيه للتو، كان هذا هو ثانى مبنى معتدل الحرارة إلى حد ما بعد منحدر سالانج. كان مطعم خراسان يستقطب جماعات من العائلات، أو ناقلات البصل والفلفل الحلو والخشب والخراف والشمام.

تقدمتُ فى العراء كمركب سفينة ثلاثية الصوارى، حيث المنصة التى يشوى عليها قسمة الله اسياخ الكباب تطل على الساحة التى يغسل فيها بعض الصبية سيارات بمياه غزيرة: فيما يعد ترفاً، إذا فكرنا فى كابول حيث الماء، مع الكهرباء، هما أسرع ما يشح وجوده. خلف واقية ريح، بين أكوام أوانٍ وتعرجات من قطع إسفنج ملتفة، برزت لحية ناصعة البياض: عجوز يمضى ليلته فى هدوء.

توارى «قسمة الله» داخل سحابة من الشحم. قطعة صغيرة من اللحم، وقطعة ضخمة من الدهن،

(*) Khoda hafez بالضبط (فى حفظ الله).

وهكذا دواليك... مما يُذكَر أن للخراف كتلة دهنية ضخمة خلفها تسمح لها بتحمل برودة الشتاء. وُضع كرسى مثبَّتاً على الأرض بإحكام، جاهزًا ليريح عليه «قسمة الله» جسده المنهك. عندما كان النادل لا يأتى ليصرخ فى أذنه بطلب جديد، كان يجلس متربعًا فوق حصيرة ويقطع بالسكين، بخفة الحواة، الدهن الأبيض الذى تلمع به يداه.

جلسنا لتناول الطعام تحت كرمة عنب وسط الدخان المنفر الذى بدا لى مشهِّيًا فى ذلك المساء، ونحن نقرأ بصعوبة كتاب رونق أصول الفارسية المنطوقة فى أفغانستان. أدرك «قسمة الله» ما نقوم به فوضع أسياخ الكباب هناك. أخذ يتلفظ بوضوح الأصوات التى نطقناها بشكل خاطئ وقد أرخى فكه. وسرعان ما ارتفع عدد المدرسين إلى خمسة عشر يقلدون المعجم. وُضِعت الأذرع فوق الرءوس، وتراخت الأعناق وتزامن طرق الأقدام مع سرعة الإيقاع. كان يمكن أن تكون لذلك ألف دلالة، لكنى لم أعد أفكر فى التعلم ذاته. توارت أسياخ الكباب ودهن الخراف تماماً فى غمرة الحماسة التعليمية. لا يحدث كل يوم أن يمضى أجنبيان الأمسية ويقضيا الليل بكامل إرادتهما، وباستمتاع أيضًا، فى مطعم خراسان. أما ما لم يخطر «لقسمة الله» ببال، فهو أن كل حركة من حركاته، المتعانقة مع نسيم المساء، قد أضفت على هذا المشهد سمة الاستراحة من عناء السفر، وأن سعادتى كان لا يعادلها شىء.

ثَبَّتَ فى الظلام مزلاجًا على باب حجرتنا ونظف بعناية حبات الأرز التى ظلت ملتصقة بالحصيرة. بطرف أصابعه، ناول ناتان مفتاحًا صغيرًا كان يفتح القفل النقال الذى يدعم وحده إطار الباب بأكمله. ثم مد إلىّ صفيحة ماء مشيرًا إلى الخلفية البعيدة بذقن عريضة. هل أحتاج شيئاً آخر؟ حقًا، الشىء الوحيد الذى ينقصنى آنذاك، لم يكن «قسمة الله» ليقدر أبدًا على منحى إياه، فقد بدت يداه القاسيتان قذرتين بما لا يسمح بالمداعبة. نمت على سرير القش الذى أعده لنا وكأنه فراش عرس. ضمنى ناتان حتى كاد يسحق ضلوعى وتمتم بوعد جديد صدَّقه هو، وصدَّقته بدورى. أعياد الميلاد تدعوه ليكون بجوار أطفاله. وفى العام الجديد، سيبوح بكل شىء.

الفصل السابع عشر

بدأ الليل ينقشع، وكان لسيجارتى طعم السجائر الأولى التى نختلسها بزهو شباب عنيد. أخذت ألهو بتسوية سحب الدخان فى الضوء المتقاطع المنبعث من شمعتين. دعا المؤذن للصلاة. ما كدت أندس فى الأغطية الباردة حتى اخترقت أشعة الشمس الستارة. انتابنى شعور بحاجة ملحة دفعنى خارج الفراش. هدأ روعى سطوع الضوء، والهواء الذى كان لا يزال رطباً للغاية فى فتحة الشباك: كان النهار فى انتظارى.

مرارة القهوة على شفتىّ، وعلى لسانى لسعة النيكوتين، مشاعر تتوافق بشدة مع إيقاعات تلك الحياة المفرطة، التى كنت أطالبها بالمزيد فى كل ثانية. كان اليوم الأول من عام جديد: حمل لى هذا الصباح ذرّة من الخلود. بنظرة جديدة، أخذت أتأمل الشوارع والمارة والأسواق وحركة المرور والأسلحة والجبال، وشحوب عينيه. كانت سنة ١٣٨٢ عند الأفغان. بعد

شهرين وعشرين يومًا، سيحتفلون بعيد النيروز(*) وبداية سنة ١٣٨٣ .عندئذٍ تأتى العائلات بالحافلات أو سيارات الأجرة أو فى جماعات، وتختار تلاً تصعد إليه ببطء. رحل ناتان إلى فرنسا، احتفالات أعياد الميلاد وساعة الاعتراف الرهيب.

فى المرآة الارتدادية للمركبة التى كان يقودها شاهارا، فاجأنى وجهى حتى ظننت أنه وجه آخر. كان سهل شمالى مغطى بطبقة رقيقة من الثلج. انشق المشهد هنا، مثيرًا أعتى الرغبات لدى أقل الناس نزوعاً إلى الحلم. رأيت من جديد سلسلة متتابعة من صور متفرقة لذلك النهار من شهر مايو حين وصلت إلى أفغانستان، عاجزةً عن النطق من فرط السعادة. تركنى ناتان لمدة أسبوعين ليفصلنى عن القليل الذى يربطنى بفرنسا، ولأتم طقوس وداعى فى دورة أيام وليالٍ لا تتوافق أبدًا مع العدد الصحيح لساعاتها. أحتفظ من تلك الفترة بذكرى مذاق الحياة.

كان هذا الطريق المؤدى إلى سهل شمالى، الذى لا يفتأ يزداد اتساعًا حتى يلامس خاصرة جبل هندو كوتش، هو نفس الطريق الذى سلكته مع ناتان بعد يومين من وصولى لأفغانستان. معًا، حريصين على تحاشى تلك الموجة العارمة التى كانت تجذب أحدنا نحو الآخر، عبرنا مقاطعة كابيسا قبل أن نغوص فى وادى بانجشير. كانت الثلوج آخذة فى الانصهار. وجرف النهر فى مساره دوامات من الزَبَد تأملناها

(*) Nawroz عيد النيروز، العام الجديد.

مدركَين تمامًا أن تلك الأمواج لم تكن لتعيدنا إلا إلى انفسنا. بعيدًا، بدت الجبال محرومة حتى من شعاع شمس واحد. فى الرابعة مساءً، يحل الليل فيمحو كل اثر لليقين ليفسح المجال للغز أماكن لا يمكن لفرط غموضها الوثوق بالغد. أفشيتُ سر فرحتى لشاهارا. عادت ثقتى بناتان كاملة. بعد عام، أو خمسة عشر عامًا، ربما أواصل الحياة هنا معه؟ من يدرى؟ من يوجه تحركات كائنات متمردة وعنيدة؟

"إذا نشبت حرب أخرى، ستعودين إلى فرنسا!" فى ذلك اليوم العجيب الذى بذلت كل جهدى لأبثه فى انسجة ذاكرتى، نسيت فيما يبدو أكثر من عشرين عامًا من التاريخ: ماضٍ ممتد بامتداد عمرى، صنعته حروب ومآسٍ. لكن شاهارا كان يعلم. سَحَرَته الطفلة فى داخلى، أحبنى بلا شك. لكن لم يكن أى شىء مطلقًا ليمحو أبدًا إجحاف مسقط رأسنا. كلانا، ناتان وأنا، سنعود لنجد ملاذًا آمنًا فى أوروبا عند أول بادرة تهدد سلامتنا. سيكفينا يوم أو اثنان لنجد طائرة ونحزم أمتعتنا ونختفى. لم أنكر. أفلتت العبارة إلى شاهارا الذى كانت تتحرك بانتظام فوق عينيه أهداب طويلة مائلة إلى الزرقة تنساب عبرها الحياة، بعذوبة يكتنفها غموض. لم يكن لى أن ألوذ بالصمت. بادلنى شاهارا الاعتذار. "إن شاء الله، لن تكون هناك حرب أخرى!". ودعوت الله بدورى.

الفصل الثامن عشر

الحب لا يعرف الموت الإكلينيكى: فهو لا يفتأ يتحرك، يصعب تحديد مكانه، كأنه دودة تسرى تحت الجلد. قد يظن المرء يومًا، إذ يخرج على أطراف أصابعه عبر باب سرى، أنه قد نجا أخيرًا من جذوة الذكرى. عندئذٍ يهم بالاحتفال بعد أن يأخذ أُهبته تمامًا. ويشجعك الجميع" ـ سيغير ذلك مسار افكارك!" –بينما تكون آلة التعذيب قد أمسكت تمامًا بتلابيبك.

هاتَفَنى ناتان: سيبقى فى فرنسا أسبوعاً آخر. ذلك الوقت الذى ظن أنه يحتاجه ليقول الحقيقة انتهى بإحاطته بسياج من الكذب وبإنهاء علاقتنا.

فى البداية يوجد أناس، أناس كثيرون، وبأكثر مما يجب. أجد ركنًا صغيرًا، حافة شباك، قطعة وسادة أجلس عليها بأقصى قدر من التكتم وسط حشد لم يلتفت إلىّ بالطبع. أؤجل اللحظة: سأرقص

فى اللحظة التالية. أحاول أن أختلس من الآخرين نوا
يسيرًا من الطاقة، كمصّاصة صغيرة خاوية، خاو
تمامًا. حولى، تستغرقنى حركة الصخب الرنا
كالجرس. النساء، مرتديات ثيابًا لا نراها أبدًا ف
كابول، ينتقمن من الدولة الإسلامية، فيكشفن ع
أجسادهن بشكل يبعث على الحيرة. من وكرى أرق
حيل الإغراء: رجال ونساء يتبادلون الحب بلمسة فخ
أو بتشابك ساقين. إلى أين ستذهب هذه الفتا
الساحرة بين ذراعى هذا الرجل الذى لا يبدو عليها
أنها تحبه؟ إلى أن جاءت تباشير قبلة، رفضتها بيد
رقيقة، ليعترى الارتباك جسدها النحيل نصف العارى
فجأة مبتعدًا لمسافة كبيرة. فرت هاربة. ابتلع ريقه
خبت جذوة رغبته. لكنها كانت قد رحلت.

وأنا جالسة خلف الأسوار، أشعر فى بطنى
بضربات الأوتار الصاخبة. يختزن صدرى نغمة
تذكرتُها توًا. تنطلق القطعة الموسيقية، فتتعالى
صيحات الفرح. يتداعى جسدى تحت وطأة الذكرى.
يزحف اللحن بلا أدنى رحمة. سيبلغ المنتهى، حتى
آخر لحظة صمت وآخر نبضة فى العروق. تبلل
الدموع وجهى حتى يتشرب ملوحتها. أملأ رئتى
بالهواء مشبَّعةً بما حولى. الناس يدورون ويتقافزون
ويضحكون وأنا منقبضة القلب. لن تمنع سقوطى
عضلة مشدودة: أسقط فى لجة عذاب الشعور به،
بفمه المملوء بالوعود، هو ونظرته الصافية. من كان
الرقص معه أشبه بالتحليق فى الهواء.

أضنتنى كابول. عاد ناتان من فرنسا ولم يتكلم. كان علىّ أن أغادر تلك المدينة. أعددت حقيبتى استعدادًا للسفر. انتهزت فرصة احتياج طلبتى لمرافق إلى فرنسا، فى لا روشيل، بمركز لتعليم اللغة الفرنسية اخترته لقربه من البحر، الذى لم يروه أبدًا. طاروا فرحًا. اتخذت قرارى بقطع عقدى. سأترك ناتان. سأغادر أفغانستان. خلال بضعة أشهر سيتوقف كل شىء.

أكاد لا أجرؤ على تذكُّر التاريخ الذى تمكنت فيه، لآخر مرة، من استجماع ما يكفى من الشجاعة لمجابهة الكلمات ومحاولة ضبطها ليتسق معناها بعض الشىء. خلال تلك الآونة الأخيرة، فى لعبة الطى والكسر، بلا أدنى شك: كنت أنا الطرف الأضعف. وبمرور الأيام، لم أجازف بتذكُّر واجبى فى أن أجد متنفسًا. حتى تجمعت المشاعر، التى لا تطيق صبرًا على الانتظار، مكونةً واحدةً تلو الأخرى طبقات متراكمة. اليوم فاض الكيل: فوضى عارمة، صمت مطبق.

عندما تحلق فوق الهضاب، ثم الجبال، ثم مرة أخرى هضاب أراضٍ غير منبسطة مثل إيران وجنوب باكستان وأفغانستان، تندى العين فى أكثر الأحيان. ولدى كل عودة إلى البلد المختار، يتجدد الشعور بالانبهار، الذى استشعرته من قلب مقعدى فى الطائرة. بدت لى الحياة أخف من فقاعة. كان الطيف

الذى أعرفه جيدًا يتراءى دائمًا فى الضوء. لم أعد أدرى لمن يعزى الفضل، للأرض أم للسماء. كما لو ان أقصى الأصدقاء جالسون إلى جوارى، أشاطر الجميع فيض القلب بالعواطف، موسيقا فى القلب ولّدت لدىّ الرغبة فى الرقص، لا يهم أنى، فى حقيقة الأمر، بلا حراك، وحيدة وعلى ارتفاع ٢٣٠٠٠ قدم فى درجة حرارة أقل من خمسين، وسعيدة مع ذلك.

كل ما فى الأمر أن تلك العودة كانت ثقيلة الوطأة كجسد ميت: ستكون الأخيرة. تركت طلبتى فى لاروشيل. كانوا سعداء كأطفال لا يدرون شيئاً. حلقت فوق الجبال التى زرعت على قمتها أجزاء من قلبى. لم أفكر أبدًا أنه سيتعين علىّ العودة يومًا لاستعادتها. وهأنذا، فجأة، لم أعد أدرى شيئاً. لم أعد أريد شيئًا. لكنى أريد فى ذات الوقت. لم أعد أملك حرية الاختيار. لا أدرى لماذا. أعلم أنه كان يتعين الرحيل. لماذا تلاشى كل ذلك بسرعة؟ لماذا لم يستمر قليلاً؟ ليلة واحدة، مجرد ليلة؟ أو ربما عام آخر؟ لعل شهرًا كان يكفى!

عدت لآخر مرة إلى المكان الذى أمدتنى فيه الحياة بتوازن مثالى. حب. رجل. بلد. عمل. دخل يغطى احتياجاتى اليومية. ويكفى حتى لسداد فواتيرى. بل حتى تشبُّع يدىَّ، وحتى السواعد، بالرائحة الكريهة لزيت الغاز السريع الالتهاب اللازم لإدارة مولدى

بلمسات عشوائية. عشقت تلك الحياة بكل ما فيها. وحتى اختلال الأمن، والنظرات الفظة، والحجاب، والقمصان الطويلة فى هواء ملتهب بلغت درجة حرارته خمسة وثلاثين. لكن الهدية تلاشت بذات سرعة حصولى عليها.

فى ذلك اليوم، سار كل شىء بالعكس حقاً: هبطت طائرة الخطوط الجوية الأذربيجانية قبل موعدها بنصف ساعة، ولم تتجاوز فترة وقوفى فى الصف أمام شباك الجمارك أكثر من خمس دقائق. طلبت من ناتان ألا يأتى لاستقبالى. وكان شاهارا فى انتظارى.

عزوت انقباض سحنتى إلى الإرهاق. نجح وشاحى المحكم ببراعة فى إخفاء حزنى. كان كل شىء جميلاً، ولا شىء من نصيبى. تراءى منزلى. أمسكت حقيبتى. كنت قد عزمت أن أدخل وحدى إلى بيتى لأتلقى فى خصوصية الحجر الذى ستلقيه الحياة بالتأكيد فى وجهى. لكن ذلك استبعد من الحساب إخلاص شاهارا ورهافة حسه وبداهة حدسه. أصر على مرافقتى إلى الداخل ليطمئن بذلك على سلامتى. كان البيت باردًا. قُضى الأمر: سيرى شاهارا دموعى. بحيلة بارعة وقفت بجانبى، بثلاثة أرباع جسمى، وقد أدرت ظهرى وأحكمت وشاحى، فنجحت فى خداعه لدقيقتين على الأقل. بينما كنت أصطحبه حتى البوابة، أبدى قلقه من أن يتركنى وحيدة. تمتمت

بعبارة خفيفة بلعت ريقى فى منتصفها فى توقيت غير مناسب فافتُضِح أمرى فجأة. لم أعد أسمع وقع خطواته تتبعنى. توقف شاهارا. انتظر أن ألتفت. كانت المقاومة ضربًا من العبث، فقد خنقنى النحيب الآن. الكلام أو الصمت، كلاهما يشى بحالى!

كانت تلك هى اللحظة التى اختارها شاهارا لينطق واحدة تلو الأخرى مقاطع اسمى بعذوبة لا متناهية تداعت معها آخر معاقلى. لم أر جسده وهو يقترب من جسدى. دون أن يتاح لى وقت للفهم، ألقيتُ نفسى بين ذراعيه، وقد لامسَت جبهتى صدره وأمسك رقبتى بيده. أدركت الأمر فجأة، فتراجعت بسرعة. أمسكنى من كتفىّ. كان لابد من أن أنظر إليه. بأنامله الرقيقة، جفف نبع دموعى، مردِّدًا ثلاث مرات، وهو يبكى بدوره، أنه وإن كان أفغانيًا يحق له تمامًا مواساتى لتخفيف ألمى كما يجب: بذراعيه الحاميتين، بقبلاته المتحفظة فوق كلٍّ من حاجبىّ. أفسح الألم مكانه للذهول: كانت أجرأ ملامسة سمحنا بها لأنفسنا هى قبضة راحة يده فى كلتا يدىّ، فى أكثر الأيام استثناءً من القاعدة! تراخت ضمة العناق: فقد هدّأ روعى. اجتاز البوابة. صَفَقَ باب سيارته. ولم نعاود الحديث أبدًا عما جرى.

الفصل التاسع عشر

إن مفهوم البشر واللغات والأراضى يعنى حدودًا يلوذ بها البعض فيما يحاول البعض الآخر أن يجدوا سبيلاً لاجتيازها. الحدود، تستدعى إلى الأذهان ما وراءها، وندرك قليلاً ما أمامها. لكن أحدًا لا يعرف دخيلة هذا الخيط الرفيع من الأراضى التى يلفها الغموض. يجد المرء نفسه عند الحدود تائهًا إلى حد ما، لا يدرى قط إلى أى مدى يمكن المضى، عندما تكفى يد، ممدودة أو مقبوضة، لإطلاق الصواعق أو إشاعة بهجة لا حد لها. فى أفغانستان كثير من هذه الخطوط الواضحة أو الملتبسة، لكنها قلما تنمحى، التى لا يمكن اجتيازها دون أن تنطلق صفارة إنذار على الفور، فإما أن يصيح جندى فى وجهك محذِّرًا، أو ترفع امرأة جميلة خِمارها فينساب الضوء من ناظريها.

عندما يمحو المساء كل طيف وتخلو الشوارع والطرق من أثر أية خطى، لا تبقى فى كابول سوى

سيارات الأجرة الهادرة وأنوار النيون المرتعشة. يغط الجنود فى سبات عميق عند مفارق طرق باتت بلون السناج؛ ويحرك أطفال صغار جمرات متَّقدة فى الليل فيرسمون مسارات للدخان، جلبًا للحظ. تخمَّن ظلال وانحناءات أكتاف دقيقة. يُسمع حفيف قماش يحركه الهواء إذا لم يُتوخَّ الحذر. تنبسط العباءات فضفاضة، لامتناهية الطيات، فى رقصة مثيرة للقلق. اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، قلما منفردة، تعبر الأشباح الطريق المملوء بالحفر حيث تتدافع السيارات. تتعرقل الخطى، مرفق يجنح من تحت القماش، يد تحاول أن تشد قماشة اللوحة ليتسنى تخمين بعض ما يخفيه العالم. لكن الكوة ضيقة، ومحاطة بسياج من النسيج. لا ترى متسولة الشوارع فى رمضان شهرًا للعبادة، بل مصدر رزق يومى. أما الإفطار، عند المغرب، فإن عدالة توزيعه ترف لم تطله يد الخالق.

كتماثيل مجهولة كامنة فى الطيات الزرقاء، كانت الكتل المحدبة تمد يدها. بينما الظلام يلف كل شىء، اخترق شعاع من الضوء فتحة خمار ليسقط على العين تمامًا، كاشفًا عن قزحية، بل وربما حتى عن لونها. مخلوق بلا وجه طلب منى مالاً بينما كنت أحاول ألا أضيِّع شيئًا من شباك نظرته. التمستْ المعجزة فحدثَت. انتظرتُ وجهًا، فأتى.

بحركة ملؤها الدعابة، باندفاعة رائعة لم ينبئ بها الشكل المتحجر، ألقت المرأة فى السماء بذيل

• مارها لتطوينى تحت خيمة حظها. وكان المضجع ونيرًا، فى قلبه عادت الحياة فجأة إلى كل شىء. كان ثمة كائن تحت التل الأزرق. لم تكن هناك سوى نساء تحت التلال الزرقاء. حصون من النسيج أخف من الهواء، يسهل رفعها، ويندر تحريكها. كانت لهذا الكائن عينان، وجه وضّاء، بشرة يمكن مداعبتها، وذراعان عاريتان تبرزان من أكمام قصيرة طُبِعت عليها كلمات ترحيب صغيرة على شكل مخمسات. بينما كان لون الحدود الأزرق آخذًا فى الاضمحلال، اكتشفت مدى تشابه البشر: جسد مماثل لجسدى، بل ويحمل اسماً.

بدا صوت فاريبا جميلاً، متقطعًا، ورنانًا وسط الزرقة. كانت المرأة الشابة دون الثلاثين، حاملاً فى طفل - سيكون طفلها الخامس -، تضحك وهى ترسم خطوط حياتها بكل أصابعها المتحركة، تحملق بعينين براقتين. كان يصعب على عينىّ تصديق أن ذلك الخمار القذر، الأبكم، المتثاقل، المترنح، لا يوارى تحته امرأة مسنة، مريضة، نصف ميتة. قرّبت فاريبا وجهها من وجهى، متسائلة عن اسمى، ذاكرةً اسمها، وأطلقت ضحكة صافية، واضعة إحدى يديها على صدرها. كم مرة، فى زاوية الشارع هذه وفى تلك الساعة ذاتها، صادفتُها دون أن أدرى أبدًا؟ كم مرة تعرَّفَت فيها فاريبا علىّ دون أن تبيِّن لى ذلك؟ عندما تخفى مرآة بلا قصدير كل النساء، بما يستعصى معه حتى على أكثر العيون تنبُّهاً أن تميز الأخت من الأم

والزوجة من العمة، عندما يكون لألف وألف جسد ذا
الشكل، لا يبقى أحياناً سوى القد لتمييزها عن
بعضها.

بيد قلقة، أزاحت فاريبا خمارها وجدنا الحرا
تحت وابل من النجوم. تنسمتُ بشراهة الهواء الموعو
أخيرًا. أما هى فلم تكشف عن بادرة انفراج: فى
الداخل، فى الخارج، فى نهاية المطاف ماذا يهم إذا
كان الاعتياد الذى اكتُسِب على مدى الدهر وانتقل
بثبات قد أنسى الأميرة الجميلة أن ثمة تغييرًا يمكن
أن يحدث.

دون أن تكف عن تعَريفى بموضع منزلها ـ وكنا
جيرانًا! ـ، أزاحت المرأة الشابة ذات الوجنتين
النحاسيتين عن جبهتها المستوية بضع خصلات من
شعرها. نظرتُ إليها وهى تفعل ذلك، منشغلةً بعفوية
تصرفاتها أكثر من انشغالى بمحاولة فهم كلماتها.
ارتفع حاجباها، وتحدَّبا، ثم غاضا. ارتسمت مسحة
عبوس، سرعان ما تلاشت. نسيت فاريبا وجهها
السافر. بين الفينة والفينة كانت تمر بعينيها بادرة
تساؤلاً لا تكمله أبداً. لماذا خُلِقتُ بهذا الوجه؟ أظن، يا
فاريبا الجميلة، أن الخمار ما كان له أن يُرفَع بمثل
هذه البساطة، دون أن تحملك أدنى مضايقة على
معاودة إسداله.

عندما هممتُ بالرحيل، شددتِ على يدى كأنك
تريدين تدفئتهما بحرارة تلقائية. فى تلك الدقيقة

فقط تذكرتِ الأفول الذى ما زال يتربص بك وسيظل متربصًا بكِ دائمًا. لقد حسمتِ الأمر: فما جدوى البكاء طالما أن الأمر كذلك؟ واختفيتِ، وأنتِ لا تزالين ممسكة بيدى، داخل دوامة ردائك الأنيق. عبر طيّات النسيج، ما زال صدى كلماتك الخافتة يصل إلى أسماعى، وأطالع ابتسامتك التى لا يكاد يعكر صفوها شىء، محاولةً أن أجد فى هيئتك المائلة إلى الزرقة شيئاً فريداً أميز به مشيتك غداً: تفصيلة دقيقة تتيح لى أن أتقدم إليك وأشد على يدك؛ لأنى قد تعرفت عليك.

ستؤخذ عليك الثقة البريئة بالنفس: عند تقاطع الطريق التالى، سينبهر رجل بوجهك الذى عرضتِه على الأجنبية الشابة. لقد ابتعدتِ بالفعل. كأن الخمار المنسدل كاد يلغى وجودك. لم أكنِ أملك شيئًا لك. لم يكن بمقدورى مساعدتك. إنك تتسولين إلى جانب عملك اليومى. فأجر المستشفى ضئيل. وزوجك مات. لن يتعرف على هذا الطفل الذى يرسم انحناءة على خمارك عندما يحدد الريح المقابل أجمل نتوء فى تقاطيع جسدك.

الفصل العشرون

من بين تعرجات درب موحل نسعى للوصول إلى سماء كابول. مع الارتفاع تذوى النفائس الآخذة فى الاضمحلال كشريط رفيع. كلما صعدنا، طال الطريق إلى مضخة الماء التالية، التى لا تعمل فى أكثر الأحيان. تُصقَل الوجوه مع الارتفاع عندما يقرص البرد خدود الأطفال. فوق وجناتهم الحمراء القانية، تلمع عيونهم رغم كل شىء، لعلها إحدى المزايا العابرة لكائنات ما زال ضميرها يدخر قليلاً بداخله.

رافقنى ناتان. أردت الذهاب معه إلى قمة أعلى تلال المدينة كى أودع كابول وأفغانستان. لحظة أن أدرك ذلك، اضطربت عيناه. أوقفتُ بقبلة شاردة رعشة شفته السفلى وكأنه لا أهمية لشىء من ذلك. واغتنمت الفرصة لأطلب منه أن يرافقنى خلال الأسبوع التالى فى رحلتى الأخيرة إلى هيرات، كما لو أنه يمكن تصور ألا يكون بجوارى. تمنيتُ أن ألامس أحد آخر الحدود الأفغانية التى لم نعرفها. تهاوى

نـاتـان بـين ذراعىّ، لـكـنه كـان أثـقل من أن أحـتـويه. تحرَّرتُ رويدًا من تحت جسده، متراجعةً تدريجيًا حتى لمست ركبتاه الأرض.

غطى الثلج مَدرَج الجبال. ظهرت طلائع جبل هندو كوتش، كفهد طويل أبيض الجانبين. تود لو تراجع بك العمر إلى مرحلة الصغر. هؤلاء الصبية ضامرو القسمات قادرون على العيش هنا حيث أَمُرّ كطيف عابر.هم دون الخامسة. يتسولون زجاجات الماء. وهى أقل شىء. الجميع يتواثبون، محدثين ضجيجًا. أحدهم أصيب بدوار، وهو يلف ويدور فى فراغ، متعلقًا بما كان أحد خطوط الضغط العالى. بضع كلمات، ابتسامة... لكن ساد شعور بالضيق، مع طلوع السيارة فى هذا الطريق الذى يلازمهم: دائمًا بالغ الارتفاع، وطويل للغاية. لا تزال كابول، وستظل كابول. حيًا مختلفًا. هل يحمل مجرد اسم؟

هل لأن الشمس تشع بتوهج؟ أم لأن نسمة خفيفة رفعت جناحًا؟ كأن المنازل المصنوعة من القرميد تتضاحك وتتلاعب فى الظلال الباردة. فوق كل سطح على الأرض بساط، كما لو أن الليل قد مده، يشع بريقه، وتضفى الوسائد المتناثرة لمسات خضراء وبرتقالية وصفراء وزرقاء. هاهو الخمار قد رُفِع على ارتفاع مائتى متر: فى تلك الارتفاعات، يتلاشى القلق، وتنفض النساء الأقمشة بشعورهن المعقوصة وأياديهن الحمراء. لا أثر للتلوث هنا. ويثور التساؤل عما جئنا

نبحث عنه فى تلك العيون الباردة والصافية التى تنظر إلينا أثناء مرورنا. إذ بلغنا القمة، وأوقفنا المحرك، وقفنا نتنسم هواء العالم وكابول ممدودة أمامنا.

فجأة، ظهر رجلان من منحدر وأخذا يستجوباننا بفظاظة. بات العالم عدائيًا من جديد. كانت تكفى رغم ذلك كلمة كى يستعيد جلدهم السميك ليونته. قدَّم أحدهما الآخر، وقدم الثانى الأول. كان أحدهما قائدًا. والآخر يمسك بهوائى هاتف لاسلكى. تحت قماشة من الجوتة، خلد إلى النوم رجل ذو شعر رث يحتمى بمدفع رشاش ثقيل مربوط بخيط وكأنه صرة. هنا وهناك، تناثرت أغلفة قذائف مدافع على حدود محيط خارجى لم يعد قيد الاستعمال. ذلك لأن هذا التل كان منطقة نفوذ لأحمد شاه مسعود! مد القائد إصبعه نحو تلال الجوار الأخرى، معدِّدًا الفصائل المعادية التى قصفت المدينة. هنا "أسد بانجشير"،(*) جنوب جولبودان، أما حكمت يار فيقيم فى موضع آخر. من كثيب إلى آخر، كان القصف أمرًا سهلاً جدًا.

لآخر مرة، عانقتُ بنظرة واحدة كابول بأكملها. تعرفتُ على الطرق التى كنت أسلكها يوميًا. تبينتُ الجمع الكثيف الذى يضفى سوادًا على ضفاف النهر حيث يمتد السوق. عند النظر من أعلى، اختفى البشر: هكذا ندرك بشكل أفضل كيف ليد أن تقتل، ودون كثير من التردد، صفًا أو ربما اثنين من تلك

(*) أحمد شاه مسعود.

الأجساد التى لم تعد تملك وجوهًا أو أصواتًا. كى تعود الذاكرة، يتعين الهبوط مرة أخرى.

انصرف أفراد القوات الدولية للمساعدات الأمنية لتناول الغداء. نظرت إلى تلك المدينة التى لم ألبث أن وقعت أسيرة لسحرها. أرض بألف شعور متناقض، العاصمة ترتعش فى الضوء: جميلة بفيضها، جميلة بجراحها، جميلة بعنفها، وبهدوئها أيضًا. جميلة ومتناقضة، جميلة كما يليق بها.

لم يعد القائد يحاول بث الخوف فى نفوسنا، ودعانا إلى قدح من الشاى الساخن. تبعتُه بلا تردد داخل مكعب خرسانى. ثلاثة أجزاء متوالية. حياة الجنود المتعاقبين على نوبات الحراسة تسير على وقع ترددات اللاسلكى... لو أن النزول بعد صعود لا يستتبعه الصعود ثانيةً! كان الفريق المكلف بحراسة مركز الإرسال يتألف من واحد من هازارا عمره غير معروف، وآخر طاعن فى السن من بانجشيرى وشاب من كابول. إن شاء الله، سيأتى هذا الأخير يومًا إلى باريس على متن إحدى طائرات شركة أريانا.

كما لو كان إنذارًا للعالم، شق الهاتف اللاسلكى الصمت المخيِّم على المكان. باندفاعة واحدة، قدَّم لى الرجال الثلاثة قطعة الملبس الوحيدة لديهم. عيونهم تفيض بفرحة يعقبها ضجر، ظل كآبة وذَرّة رغبة.

الفصل الواحد والعشرون

فى دليل فودور الحديث عن أفغانستان نجد العبارة التالية: "عند بلوغك الطريق، يبدو لك الأفغانى جنسًا بشريًا نادرًا. فما أن تلمح بعض الموظفين والعسكريين فى مركز إسلام قالا الحدودى حتى تسلك الطريق المؤدى إلى هيرات دون أن تصادف أحدًا يُذكر: عربتان أو ثلاث، حافلة متمايلة، وفى الريف المقفر، بضعة فلاحين منعزلين ومتباعدين."

منذ ثلاثة أعوام يعمل الإيرانيون فى ترميم الممر المرتفع المؤدى إلى حدودهم. من هيرات، تمتد أربعون كيلومترًا من القار مخترقةً جفاف مشهد بلا معالم. تمتد مخيمات معسكر اللاجئين فى مازلاخ بامتداد البصر على طول الدرب الذى يربطها بقرية إسلام قالا. ويكتمل المشهد بالحافلات المتهالكة فى جلال أباد. استدرتُ نحو ناتان. كانت نظراته ثابتة ووجهه بالغ الشحوب. تشبثت أصابعه بالمقود وكأنه ما زال يهمنا أن نتجنب وقوع حادث. حرَّرتُ إحدى يديه

لأُودِعها رقبتى. قاوم، مجادلاً بأن الطريق شديد الخطورة. لم أعد أفهم غريزة البقاء لديه.

قرب إيران، الشاحنات ذات حمولة الخمسة والثلاثين طنًا تجرى بأقصى سرعة، فتغرق القرويين فى سحب الدخان المنبعثة منها. كانت تلك الوحوش متجهة إلى طهران أو أنقرة إيذانًا بمناطق للتنمية الاقتصادية لا تضاهى بأفغانستان. كلما تقدمنا، كانت الابتسامات تندر ويبدأ الضجر. مررنا ببضعة مساكن أفغانية هادئة مستديرة الأسقف، وجِمال وحيدة السنام متناثرة تنظر إلى الغرب، ولا يبدو أنها تعى شيئاً، وكهل انحنى ظهره تحت حزمة خشب جَمَعَها لا ندرى من أين.

كانت أبراج الأسلاك الداعمة لخط الضغط العالى الذى سينقل الكهرباء الإيرانية يومًا ما إلى هيرات منصوبة على الطريق. وعلى البعد، بدت صورة آية الله الخمينى. حل اللباس العسكرى الصارم والذقون الحليقة محل الابتسامات الفجة والسحنات الخبيثة.

حُذِّرت من دخول السوق الإيرانية التى كان يسرنى التنزه فيها: كنت امرأة، والوحيدة الموجودة هنا، بين زيوت المحركات وشحم الشاسيهات وسائر ما يُنسَب إلى عالم الرجال. ابتعدت عن الإيرانى العنيد، شرطى قصير القامة معتل الصحة كان يمكن لإصرارى أن يعطيه شعورًا بالانتصار. مع التقدم

لبضعة أمتار أكثر مما ينبغى، شعرت وكأنى قد فقدت جنسيتى، وبدا جواز سفرى أجوف فى ذلك الشريط من أرض لا يملكها أحد، يحدُّها فقط من الغرب لباس عسكرى أخضر، ومن الشرق بندقية كلاشينكوف. نسيت الشمال: "من أين أتيت؟ وإلى أين تذهبين؟" وما الفكرة، أيضاً، فى الذهاب لرؤية الحدود دون اجتيازها أبدًا! وشهر رمضان الذى أنهك قوى الجنود جعلهم أقل تساهلاً من المعتاد.

بخلاف بلدة إسلام قالا الضخمة، لا شىء يشير إلى أنك غادرت بلدًا متجهًا إلى آخر: كان درب اللبانة المفضى إلى موضع آخر لا يتحدث بأية لغة. أدرت ظهرى إلى إيران عائدة إلى هيرات تحت فرقعة الحصى الذى لم يختلط بعد بالقطران. ثلاثة كلاب حراسة مولوسية، وكلاب البدو التى بُتِرت ذيولها وآذانها كى لا تتمكن الذئاب من الإمساك بها بسهولة، حفزتنى للعودة بصورة أسرع إلى أفغانستان وإلى الليل.

الفصل الثانى والعشرون

هذا العام ونصف العام الذى انقضى كان يمكن أن ينطوى على مائة عام. سيل من المشاعر العارمة التدفق، بدوّاماتها وذُراها وجوف أمواجها، بزَبَدها الأبيض والخدوش الصغيرة التى تنكأها الصخور الراسخة. كان عامًا ونصف عام أفغانيًا، حسب بيانات جواز سفرى: "العنوان الدائم: مقابل ليسيه زارغونا خانا-إى ـ ٤٩ خليفة الله، كابول (أفغانستان)". علىّ أن أعترف بأن الحظ قد ابتسم لى. لا أدرى كيف. لا أدرك مصدر المعجزة. وما يثير قلقى قبل كل شىء، هو فكرة أن البركة(*) قد تتخلى عنى أيضًا عند انتهاء هذا الخط. كأن تتحطم الطائرة أثناء عودتى إلى فرنسا. أو مجرد خلل بسيط يوقف ضربات قلبى. لكن شيئًا ما يصر على أن نظل أحياء.

ذكَّرَنى مطار رواسى بحجرة معقمة واسعة. كل شىء براق، كل شىء لامع، كل شىء متاح، يُشترى

(*) baraka بالعربية فى الأصل.

ويُشرَب ويؤكل . أذرع عارية، شعور منمقة، آذان مكشوفة، وأظافر أرجل مطلية. أزواج متشابكو الأيدى سيفترقون عما قليل، لكن لا يهم، سيتعانقون فى ذلك اليوم، وسيمسك أحدهما بالآخر ويقبِّل شفتيه. امتد المَدرج مترامياً كذيل ثوب من الساتان خلف ألواح الزجاج المنيعة. طائرة الخطوط الجوية الفرنسية من طراز بوينج ٧٣٧ التى لا تختلف فى شىء عن طائرة التوبوليف التابعة للخطوط الجوية الأذربيجانية التى انتزعتنى من كابول. طائرة إير برلين، طائرة أيبيريا، قمرات الطيارين الناصعة البياض فوق مدرج ناعم: بساط رغوى. كل ذلك برائحة الثياب الجديدة والرجال الحليقى الذقون. ستقلنى عربة أجرة مريحة. الليلة الماضية، انهار أحد جسور ذلك المطار الجديد ليقتل خمسة أشخاص لم أكن بينهم، ولم أجد لذلك تفسيراً قط.

يا للوعة الفراق، كل فراق! الشعور بالضياع، بالهجر، يتجدد بلا انقطاع! السماء البيضاء التى تنفرد بها الصحارى اجتاحتها ريح عنيفة دفعتنى إلى داخل الطائرة، تحديداً فى تلك اللحظة التى لم أكن أريد أن أغادر فيها كابول. لكنى رحلت رغم ذلك. لم نعد نملك الخيار. لآخر مرة، ارتسم طيف ناتان فى آخر الرصيف، وقد بدت أهداب سترته سوداء فى النور المعاكس. فى مأمن تحت السلم المتحرك المطبوع عليه شعار شركة أريانا، ألقى رجل ضئيل بوجه عالك

فى فمه بحفنة كبيرة من التبغ(*) مستعدون للطيران؟ لست مستعدة.

الرحيل بكل أنواعه قطعى ويسهم فى الحركة المستمرة لتآكل الحياة.

(*) naswar تبغ يمضغ.

الفصل الثالث والعشرون

يكمن بيت القصيد فى بلوغ نهاية، ثم التقاط خيط بداية جديدة. نقطة فى رواية أو خاتمة فيلم سينمائى، وفكرة عمل آخر لا يكون الظل أو التتمّة لعمل انتهى. لكن لأنى أدرك أن الحياة بارعة فى ذلك، فإنه ليس من طبعى أن أثق بها دائمًا. بكل ما تنطق به كل خطوة من خطواتى من تصدع، ما دمت سأموت قريباً فى عيون أفغانستان. الاختفاء من المشهد كافٍ للفناء. الرحيل: اقتلاع جذورك من أرض كنت تظنّ أنك ستُدفَن فيها، عناق وجوه سيشوش الزمن صورتها، ومقاطع أصوات سيلفُّها الصمت. آه لو كنت فقط أعلم لماذا، لكن لا، إننى لا أعلم، أو ربما لا أعلم إلا قليلاً لا يغنى من شىء. كان الميلاد سريعًا، من هذه الحياة إلى تلك الأخرى، والموت شرس، وكان يجب انتظاره.

ضئيل القامة، قابع فى مقعده الوثير، واضع يده كالبوق على أذنه العجوز لتضخيم الصوت، لم يكن

الملك زاهر شاه يسمعنى. يصعب علىّ كثيرًا،
مواجهة كائن بشرى، أن أستمتع بالأسطورة. أتيت لهـ
الغرض. لكنى لم أعد أرغب فى ذلك. كنت أتمـ
الحديث مع زاهر شاه، وليس مع صندوق للذكريا
يُفتح لأجلى وحدى. وتملَّكتنى فكرة أن تلك الرأ
الملساء يمكن أن تُنسِيَنى أن الملك إنسان أيضًا. إنسا
رأت عيناه بالتأكيد ألف قرن من الزمان، لكنها لم
أبداً جذوة حب متقد. رجل يستنشق ذات الهواء مثلا
يحتسى ذات الشاى الذى فى أقداحنا ويتساءل هـ
أيضاً بالضرورة عن سبب ذلك. كان جذابًا بالتأكيـ
مؤكد أننا قد سرَّينا عنه، بمظهرنا البرىء البعيـ
تمامًا عن مشاكل الانتخَابات، بوجوهنا العاشقة غيـ
القادرة على إخفاء شىء.

هل أدرك الملك زاهر شاه الدور الذى لعبه فـ
أسطورتنا؟ هل خمَّن سبب مجيئنا هنا؟ هل أدرك قد
الوله المتقد فى عيوننا؟ هل كان زاهر شاه يعلم أنـ
ساعدَنا، وهو الملك، على أن يفترق أحدنا عن الآخر
هل شعر بأنه كان زادًا لآخر دقائق فى عمر حبنا؟ أنـ
قد أتم عناصر لغز هذا الوله الأفغانى حتى يمكنـ
أخيرًا أن نحله غدًا؟ هل بوسع الملوك أن يقرءوا
عينى امرأة أن رجلاً قد استحوذ على أرق مشاعـ
الحنان فى قلبها، وأنه لم يتبق شىء لأحد كائنًا مـ
كان حتى لو كان ملكًا؟

علينا أن نشكره فى صمت لأنه ملك المكان الذ
أبيح لنا فيه كل شىء. لا قيمة للحياة فى نظر مـ

يفترقون. نتلاقى، ونتعانق، ونتعلم الحب، وفى ذروة اللذة تُعلَن النهاية التى لا يسع أكبر الملوك سنًا أن يَحذرَها. كان مظهره أنيقًا. يضحك قائلاً "المظهر!". "المظهر أنيق!" تمامًا كمظهر السعادة الذى رسمناه على وجهينا ناتان وأنا، بينما كل شىء يذكِّرنا بأنه لم يبق سوى أسبوع...

فى سن التاسعة عشرة، احتل زاهر شاه مكانه فى قلب التاريخ الأعظم. أما نحن فجسَّدنا التاريخ الأصغر. لكن الممالك وصراعات الأشقاء، النفى والعودة، كلها بدت لى أشياء بالية إلى جانب كلمة "نحن" هذه التى كانت تتجه بهدوء نحو النهاية. كان علينا رغم ذلك أن نحيا تلك اللحظة الرائعة: فالمرء لا يتحدث إلى ملك كل يوم. لكن الحديث، بحق، أمر لم أعد أجيده. كان ناتان دائمًا أقدر منى على التحكم فى مشاعره، أو أقدر على الكتمان، فتولى هو مهمة طرح الأسئلة؛ واكتفيت أنا بالرد على ما كان يوجَّه إلىّ منها. حسنًا فعل إذ اتخذ القرار. ولم أملك سوى الرضوخ، ماضيةً فى حبه.

كان زاهر شاه لا يسمعنى جيدًا، فلبيت دعوته وجلست القرفصاء ببطء إلى جواره. كانت كل حركة من حركاتى تشى بالحرص على ألا أزعجه، كما كنت لأفعل مع طائر جريح يوشك قلبه المضطرب أن يتوقف فى أية لحظة. وددت أن أخبره بالتاريخ الأصغر الذى يبدو مقابله التاريخ الأعظم مجرد رقعة شطرنج

جوفاء. الحروب تزمجر عبثًا، والقنابل تمزق الأجساد، لكن ليس أكثر إيلامًا من حب نقتله.

تحت رأس زاهر شاه وُضِعت وسادة صغيرة اتخذت شكل رأسه، وهيئة رقبته، فخففت أوجاع عنقه. فى آخر البهو، لمحت بعض آنية المائدة داخل خزانة زجاجية، وقطع أثاث ثقيلة وصورة رسم مصنوع بحبر السبيدج: صورة شاب مصقول الشعر وصورة مأخوذة لثلاثة أرباع وجه سيدة ربما يكون قد أحبها. هذا هو ما كنت لأتحدث عنه إذا اقتضى الأمر: "قل لى، أين تعرفت بزوجتك؟ بم تشعر فى أوج هيامك بها؟ هل أنت مستعد للموت من أجلها؟"

يا إلهى، صرير: قفل حقيبتى ينزلق فجأة. بطرف عينى، أدركت عفو الملك ومدير البلاط الملكى، متظاهرين بلطف أنهما لم يلحظا شيئًا. هذه الحقيبة كانت كأية حقيبة. أصابتنى بالذهول حالة الفوضى العارمة التى سمحتُ بأن أتركها عليها فى حضرة ملك. كان ينبغى علىّ إزاحة طلاء الشفاه، والأوراق المبعثرة، وعلبة البودرة المكسورة ، والمناديل المستعملة...كلها ينبعث منها ضجيج ما زال يغطى عليه لطف الملك الذى ظل يسعل ويسعل. لعله كان سيغَنّى فقط لو سمحت بذلك حالة رئتيه.

بلغت مقصدى، فأخرجتُ من الحقيبة كتابًا ثقيلاً وجديدًا لم يفتحه ناتان قط. كان قد اشتراه لمجاراتى، من أجل ذلك الكاتب تحديدًا. لكنى رفضت أن أكتب

على صفحة المقدمة أدنى سطر يمكن أن يمسه. اشترى مؤلفات نيكولا بوفييه، لكنه تركنى. فليقدم كتابه إلى الملك! وهكذا فعل، سعيدًا فى نهاية الأمر لرفضى توقيع الصفحة بالأحرف الأولى. "فُتِح لأول مرة يوم ١٣ أغسطس ٢٠٠٤ .إحياءً لذكرى... كابول!" إذا وقع الكتاب ذات يوم بين أيادٍ أخرى. إحياءً لذكرى... الملك! هيا، ولم لا. لقد أعلن الموت عن وصوله، فماذا ألتمس إذًا؟ شكرَنا زاهر شاه، لكنى رأيت بوضوح أن ثقل الهدية قد أزعجه بدرجة أو أخرى. هل بمقدورنا أن نقرأ، فى شيخوختنا، الخط الدقيق فى كتاب كوارتو جاليمار: أكثر من ألف صفحة من الكتاب المقدس مثبطة للعيون المجهدة لذلك الذى رأى منها أكثر مما ينبغى؟ "كتاب أدبى!" هكذا أطلق زاهر شاه الأسطورة. ألم نأت لنستمع إلى ذلك؟ "جوزيف كيسيل، صديق مقرب!" هكذا قيل كل شىء.

نهض مدير البلاط الملكى. كانت إشارة يده الممدودة تعنى الانصراف. وانتهت المقابلة، دون أن تزيد نهايتها شيئًا عن بدايتها. بدا الشقيق متأثرًا. ناوله زاهر شاه الكتاب الذى تمناه. عجوز أعار نظارته لآخر: "نظارة عامة!" قالها الملك على سبيل الدعابة. شددنا على يده وشكرناه، قلقين لأن زاهر شاه لم يلبث أن نسينا بالتأكيد.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو.

رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - جائزة الدولة للأدب.

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كويتسى - رواية - جائزة نوبل.

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / جائزة كين .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب هن ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ جائزة نوبل.

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتَّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُسْتلُّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو» رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كويتسى. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ «الكهف».. جوزيه ساراماجو.. «جائزة نوبل للآداب» ١٩٩٨.

٢ ـ «يوميات عام سيء».. ج. م. كوتسى.. «جائزة نوبل للآداب» ٢٠٠٣.

٣ ـ «فى أرضٍ على الحدود».. شيركو فتّاح.. «جائزة نظرات أدبية» ٢٠٠١.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

يقال إن الحب العظيم رحلة.. و"ملك أفغانستان لم يزوجنا" رواية تتناول نهاية رحلة والبداية الحقيقية لرحلة أخرى. تقع أحداثها بين كابول وجلال آباد فى أفغانستان التى ضربتها الحرب، ولكنها بالتأكيد مختلفة كثيراً عن التقارير التليفزيونية المصورة عنها.. والبطلة الشابة التى تنتقل إليها لتدريس اللغة الفرنسية لا تقع فى الحب وأهواله وهوسه ووعوده الجنونية وآلام الفقد وخيبة الأمل فقط وإنما تقع أيضاً وهى تكابد سكرات موت الروح فى سحر أرض المنفى العنيفة الأسرة.

الروائية: إنجريد. توبوا كاتبة فرنسية
الجائزة: جائزة الرواية الأولى ٢٠٠٧

ISBN# 9789774211694
6 221149 014831

٧ جنيهات

الهيئة المصرية العامة للكتاب